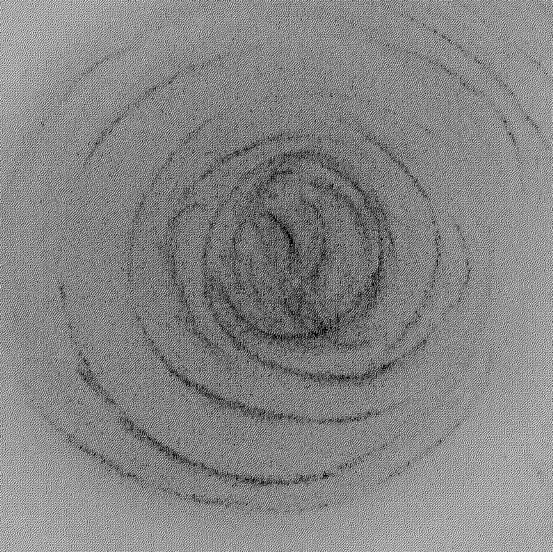
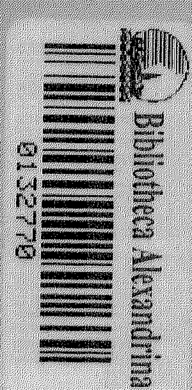
جلال الدين الرومي



الدكتور
مصطفى غالب



مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر


جلال الدين الرومي



تأليف
الدكتور مصطفى غالب

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر
هاتف: ٢٧٣٦٣٦-٢٧٥٥٣٢-٢٧٥٥٦٣-٢٧٥٨٦٧- ص.ب: ٥٢٠١ /١٣ بيروت - لبنان

مقدمة

يرى بعض المؤرخين الذين درسوا حياة الشيخ الحكيم جلال الدين الرومي وانتاجه الفكري والعقلاني بأنه لا يمكن لأي انسان من لحم ودم أن يقول مثل شعر جلال الدين الرومي، ولن يستطيع أي شاعر في المستقبل مهما ملك من قوة التعبير أن يبلغ ما بلغه هذا الحقاني المتصوف الكبير.

لقد فاق جلال الدين الرومي علماء عصره وحلق في متاهات الحقيقة حتى بلغ الجوزاء، وبذ كل من خاض غمار الفلسفة، والتوحيد، من اولئك الذين وصلوا في علومهم العقلية إلى الذروة، بما أوجدوه من تأملات وابتكارات وأفكار قيمة، وبحوث عقلية مستفيضة في

الوجود ومراتبه العلوية والسفلية، وما يتعلق بهذه المراتب من ابداع، وفيض، واشراق، ومكاشفة، وحقيقة.

وإلى جانب ما يتمتع به جلال الدين الرومي من مقدرة عقلانية فذة، كان شاعراً مبدعاً، وعلاقة حكيم لا يجارى، عده العلماء من أكبر شعراء فارس ومفكريها، تميز بمعانيه المبتكرة، واسلوبه العميق، وعشقه المنقطع النظير، الذي يرتفع بالشاعر المتيم إلى أسمى، وأجمل، وأمثل، ما في الصفات الانسانية من مناقب أخلاقية، وصفات خلقية ابداعية.

ومهما قيل ويقال عن حكمة السهروردي العرفانية الإشراقية، لا يقلل من مكانة أفكاره الحقانية، ولا يمكن أن يطمس معالم الكشف والإشراق وجذورهما العميقة في عرفان عميق، أنجبه الفكر الحقاني الإسلامي.

ويلاحظ عند استقراء التاريخ الإسلامي إلى أن الجدل الفلسفي والديني بين الجماعات الإسلامية قد دفع العديدين من الفلاسفة والعلماء إلى تصنيف الكتب والقاء المحاضرات في أشد المواضيع والتفسيرات والتأويلات صعوبة وتعقيداً. مما أدى بالتالي وبعد عجز العلماء والفقهاء عن ايقاف موجات أهل الحق من المتصوفة ودعوتهم الاشراقية إلى انكار أفكارهم وعقائدهم وتصرفاتهم، فأفتوا

بأن هذه الجماعة قد خالفت أصول الدين، وسعت إلى نشر الالحاد والحلولية، في كافة المجتمعات الإسلامية، وألبوا عليهم الخليفة العباسي والجماهير، فزاد الناس نفوراً منهم نظراً لخروجهم عن كافة التكاليف الدينية الظاهرة. فأدى هذا النفور والاستنكار إلى اندلاع نار التعنيف والتضييق على هذه الجماعة ومن لف لفها من العلماء والفلاسفة، فحوكم منهم زعماء محاكمة صورية، وسجنوا، وقتلوا، وعذبوا.

ولكن الاضطهاد والملاحقة في كل حدب وصوب، لم يؤثر كثيراً على نمو هذه الجماعة وازدياد أتباعها ومريديها، كونه ظهر موجهاً ضد المتطرفين منهم، أما الجماعة المعتدلة منهم فقد ظلت تنعم بعطف وقبول المسلمين.

لقد كان الشيخ الحكيم جلال الدين الرومي يتمتع بمناقب سامية، وأخلاق عالية، وأفكار عرفانية مبدعة، لم نعثر في كتاباته وأشعاره على ما يدل على أنه حاول التقرب من الملوك أو أصحاب النفوذ والسلطان، بل على العكس ارتبط ارتباطاً وثيقاً بتلاميذه ومريديه، ووقف ذاته على مساعدة الفقراء والمحتاجين، وتقديم المساعدات للضعفاء والمعوزين، بأمانة واخلاص، وابتعد عن كل ما يمت إلى

السياسة والامارة والملك بأية صلة لا من قريب ولا من بعيد.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن جلال الدين الرومي عاش طوال حياته بعزة وكرامة، لم ترهبه الجيوش، أو تعصف بمشاعره وأحاسيسه قوتها وجبروتها مهما كبرت وعظمت، ولم يخف يوماً من الطغاة الذين كانوا في زمانه مسلطين على كافة مقدرات الشعوب.

ويذكر أتباعه وتلاميذه بأن آخر وصاياه كانت: «أوصيكم بتقوى الله في السر والعلانية، وبقلة الطعام، وترك الشهوات على الدوام، واحتمال الجفاء من جميع الأنام، وترك مجالسة السفهاء والعوام، ومصاحبة الصالحين والكرام، فإن خير الناس من ينفع الناس، وخير الكلام ما قل ودل والحمد لله وحده.».

ومن المؤكد أن العديد من الكتاب والمؤرخين قد تناولوا حياة ومؤلفات هذا الحكيم والفيلسوف الشاعر بالدراسة والبحث والتعليق، فاظهروا ما كان خافياً عن الأعين، ولكنهم مع الأسف الشديد لم يتوصلوا إلى معرفة العلاقة الروحية الحقانية التي كانت تربط بينه وبين معلمه ومرشده شمس تبريز، لأن هذه العلاقة ظلت سراً لا يعرفه إلا من سبر أعماق شمس تبريز وعرف مناقبه الروحية السامية،

باعتباره كان جداً كبيراً من حدود دعوة أهل الحق.

استطاع بما أوتيه من علم ومعرفة وحجة اقناع من اقناع جلال الدين الرومي بتغيير حياته الفلسفية والأدبية تغييراً شاملاً، وجعله يعرض عن الوعظ، وينصرف إلى حياة التأمل والتفكير، وينطلق ليجسد انفعالاته العقلانية بفيض غامر من الشعر الحقاني بلغ أسمى مراتب الذكاء والعبقرية، حيث يقول من قصيدة له:

«أين المسلمون.. ما التدبير.. وأنا نفسي لا أعرف نفسي..!!
فلا أنا مسيحي، ولا أنا يهودي، ولا أنا مجوسي، ولا أنا مسلم..!!
ولا أنا شرقي، ولا أنا غربي، ولا أنا بري، ولا أنا بحري...
ولا أنا من عناصر الأرض والطبيعة، ولا أنا من الأفلاك والسموات..
ولا أنا من التراب، ولا أنا من الماء، ولا أنا من الهواء، ولا أنا من النار..

ولا أنا من العرش، ولا أنا من الفرش، ولا أنا من الكون، ولا أنا من المكان...
ولا أنا من الهند، ولا أنا من الصين، ولا أنا من البلغا،

ولا أنا من الكون..
ولا أنا من ملك العراقين، ولا أنا من بلاد خراسان..!!
ولا أنا من أهل الدنيا، ولا أنا من أهل العقبى، ولا أنا من أهل الجنة، ولا أنا من أهل النار..
ولا أنا من نسل آدم، ولا أنا من نسل حواء، ولا أنا من أهل الفردوس، ولا أنا من أهل جنة الرضوان..!!
وإنما مكاني حيث لا مكان، وبرهاني حيث لا برهان...
فلا هو الجسد.. ولا هو الروح.. لأنني أنا في الحقيقة من روح الروح الحبيب..!

هذا هو جلال الدين الرومي كما وصف نفسه في هذه الأبيات التي تجسد المباديء الأخوية الانسانية، ووحدة الأديان، وتدل على شوقه للانصهار في بوتقة الكل.

بيروت في ١٨/٤/١٩٨١
الدكتور مصطفى غالب

وثالث أهل الحق هو جلال الدين الرومي الشاعر المبدع، والفيلسوف العبقري، والعلامة الذي لا يجارى، اعتبره الأدباء من أكبر شعراء فارس على الإطلاق، تميز بمعانيه المبتكرة، واسلوبه العميق، وقلمه الرشيق، وبحثه الدقيق، وعرفانه العقلاني الحقيق.

ومما وصفه به أحد العلماء قوله: لا يمكن لأي انسان من لحم ودم أن يقول مثل شعر جلال الدين الرومي، ولن يستطيع أي شاعر في المستقبل مهما ملك من قوة التعبير أن يبلغ ما بلغه هذا الحقاني العظيم.

اسمه كما ورد في المصادر التاريخية جلال الدين محمد

واشتهر وعرف في الأوساط العلمية بـ (مولانا جلال الدين الرومي) نسبة إلى بلاد الروم حيث قضى الشطر الأكبر من حياته الحافلة بالخصب والإنتاج.

كانت ولادته في مدينة بلخ، يوم السادس من ربيع الأول عام ٦٠٤ هجرية الموافق (سبتمبر ١٢٠٧ ميلادية) ولذلك لقب أحياناً بجلال الدين محمد البلخي. ولكن اللقب الذي غلب عليه وعرف به بين الباحثين والعلماء على مر العصور هو «الرومي» نسبة إلى أرض الروم (بلاد الأناضول) أرض الهجرة التي انتقل إليها الحكيم، وقضى بها معظم حياته. ولم يمر على ولادته وقت طويل حتى أجبر والده العلامة الجليل (محمد بن الحسين الخطيبي البكري) الشهير (ببهاء الدين ولد) ويقال بأن جلال الدين انتسب من ناحية الأب إلى أبي بكر الصديق، ومن ناحية الأم إلى أسرة [1] خوارزمشاه التي كانت تحكم إقليم ما وراء النهر وبقاعاً أخرى من شرق العالم الإسلامي، وقدر لها أن تكون أول من يتلقى ضربات الغزو المغولي لبلاد الإسلام. ويبدو أن أباه قد حقق شهرة ومكانة مرموقة جعلته يلقب بسلطان العلماء.

---

(١) جلال الدين الرومي للكفافي ص ٢٢.

ونتيجة للاضطهاد الـذي لقيه والده بهاء الدين ولد على يد (علاء الدين محمد خوارزمشاه) سار إلى نيسابور سنة ٦٠٨ هجرية حيث زار الفيلسوف الصوفي فريد الـدين العطار، الذي أخذ ولده جلال الدين بين ذراعيه وقال لوالده بأن مستقبلاً عظيمًا ينتظر هذا الطفل، وقيـل أن الشيخ العطار زوده ببعض الكتب المذهبية ومنهـا كتابـه المشهور (الهي نامة) ومن ثم توجه إلى بغداد ومنها إلى مكة، حيث استقر في مدينة (ملطية) فأقـام فيها أربـع سنوات، وبعدها توجهت العائلة إلى مدينة (لاندره) التي تعرف الآن (بقرمان) فأقامت فيها سبع سنوات. ويقال أن جلال الدين تزوج خلال هذه المدة من فتاة اسمها (جوهر خاتون) ابنة (لالا شرف الدين السمرقندي) فانجبت له ولدين (علاء الدين) و-(بهاء الدين) الذي عرف فيما بعد (ببهاء الدين سلطان ولد) بعد أن نال شهرة عظيمة لأنه صاحب أول منظومة من أمثلة الأشعار (التركية الغربية) المبكرة، وهي مثنويته المعروفة باسم (رباب نامة) وتشتمل على ١٥٦ بيتاً.

وأخيراً حطت عائلة الرومي الرحال في مدينة (قونية) التي كانت في ذلك الوقت عاصمة للحاكم السلجـوقي (علاء الدين كتعباد). وفي سنة ٦٢٨ هجرية توفي والده

العلامة (بهاء الدين) فحزن عليه حزناً عميقاً كونه كان يدرس عليه العلوم والمعارف ويشمله بعطف وحب كبيرين[1].

وبعد مرور فترة قصيرة على وفاة والده وصل إلى قونية العالم برهان الدين محقق الترمذي الذي كان صديقاً لوالد جلال الدين. وقد سمع بكرم سلطانها علاء الدين السلجوقي فلجأ اليها بعد أن أخرجه الغزو المغولي من موطنه الأصلي. وشغل برهان الدين بقونية المنصب الوعظي الذي كان يشغله أبو الرومي. وقد تلقى جلال الدين العلم والمعرفة الحقانية على يديه بعض الوقت ثم ارتحل إلى حلب فاقام فيها بعض الوقت يدرس ويتعلم، ومنها انتقل إلى دمشق التي كانت مقراً للشيخ محي الدين بن عربي فالتقى به ودرس على يديه العلوم الباطنية التأويلية، ونهل من ينبوع معارفه الحقانية، وزامل الشيخ صدر الدين القوني، تلميذ الشيخ محي الدين بن عربي[2].

وعاد جلال الدين الرومي إلى قونية في عام ٦٣٨ هجرية، وكان غياث الدين كيخسرو قد أصبح سلطاناً عليها. وهناك بدأ جلال الدين يمارس العمل الذي أعد نفسه له، وهو الارشاد والوعظ. وليس من شك بأنه كان

---

(١) جلال الدين الرومي للكفافي ص ٢٤.

(٢) مثنوي جلال الدين الرومي للكفافي جـ ١ ص ٤٥.

مرشداً وواعظاً بالغ التأثير، ومعلمًا سيطر على جوارح أحاسيس تلاميذه. فأسلوبه في مجالسه، وفي شعره التعليمي يكشف عن مدى براعته، وعمق بلاغته.

وظل جلال الدين يعمل بالتعليم والارشاد نحو أربع سنوات. وفي شهر رجب سنة ٦٤٢ هجرية بينما كان شاعرنا العبقري يجلس في أحد الأركان المنعزلة في خلوة نفسية بقرب غدير ماء ينظم الشعر مر به شيخ كبير تظهر على محياه علائم الاجلال والاحترام فرحب به وأجلسه بجواره، وراح ينظر إليه بتمعن وروية دون أن ينطق بكلمة واحدة. فقال له الشيخ: ماذا تفعل هنا يا بني وحيداً؟ فابتسم جلال الدين بحياء ومهابة وقال: أبحث في عالم الشعر والخيال، واستلهم الوحي والجمال، واتأمل بهذه الموجودات التي أوجدها موجدها، فيختلط عليّ فلا أشعر كيف السلوك إلى معارج الحقيقة الكامنة خلف هذه الموجودات. فقال له الشيخ بعد أن أخذ بعض ما كتبه الرومي من أشعار وألقاه في الماء: أنا من يدلك على ما تبحث عنه، وأخذ يدله. بحنكة وعمق على الطريق الواجب سلوكها لسبر أعماق علم الحقيقة، فأعجب به وامسك بتلابيبه وقال له: لن أدعك تذهب دون أن تكمل ما أنت بصدده، ثم جرى التعارف بينهما، ولم يكن ذلك

الشيخ إلّا حد من حدود الدعوة الاسماعيلية يعرف بشمس تبريز. فأخذه الرومي إلى داره، وبقيا معاً لا يفترقان مدة عامين. ولا يعلم أحد كيف تحول الرومي بعد اجتماعه بشمس تبريز إلى انسان آخر، اختلفت كل أحواله عما كانت عليه من قبل (١).

لقد استطاع شمس تبريز أن يبعد جلال الدين الرومي عن تلاميذه، ويعرض عن الوعظ، وينصرف إلى حياة المعرفة الحقانية، وينطلق في التعبير عن حياته الجديدة بفيض غامر من الشعر بلغ أسمى درجات العبقرية (٢).

وتذهب النصوص التاريخية إلى أن تلامذة الرومي قد حقدوا على ذلك الشيخ الذي صرف عنهم أستاذهم، وهاجموه، فما كان منه إلا أن سافر سراً إلى دمشق. فحزن جلال الدين وابتأس لابتعاده عنه، ونظم كثيراً من شعره الوجداني في فترة الفراق تلك. ولم ينقذه من أحزانه إلا ابنه سلطان ولد، الذي ذهب إلى دمشق وعاد بشمس تبريز.

وفي شهر ذي القعدة من عام ٦٤٤ اندلعت فتنة كبرى

---

(١) أعلام الاسماعيلية مصطفى غالب ص ١٨٨.

(٢) مناقب العارفين للخاكي ص ٩٥.

في قونية، وقتل في تلك الفتنة شمس تبريز وابن جلال الدين الرومي البكر (علاء الدين). فتألم الرومي كثيراً لفقد مرشده ومعلمه ومثله الأعلى وحبيبه، وولده علاء الدين فبكى من أعماق نفسه الحزينة، وهتف بقصائد لاهبة مليئة بالحزن اللاعج الدفين، والغزل الديني العميق، وسماها «ديوان شمس تبريز».

ومما قاله من قصيدة له:

من ذا الذي قال إن شمس الروح الخالدة قد ماتت؟
ومن الذي تجرأ على القول بأن شمس الأمل قد تولت؟
إن هذا ليس إلا عدواً للشمس وقف تحت سقف،
وربط كلتا عينيه ثم صاح: ها هي ذي الشمس تموت»

ويقول الدكتور كفافي معلقاً على هذه الأبيات: «هذه المحبة القائمة على الوفاق الروحي بين الشاعر وبين التبريزي كانت ذات أثر عظيم في إنتاج الشاعر. وقد تجلت ثمارها العظيمة حين تمخضت عن ديوان من الغزل الصوفي الرائع أسماه الشاعر «ديوان شمس تبريز». ولم يكتف شاعرنا بإطلاق اسم صديقه على ديوانه، وإنما كان في كثير من غزليات هذا الديوان يتلخص باسم «شمس تبريز» فكأنه ينسب إليه الفضل في هذا الشعر، بما أثاره في روحه من وجد وحنين، ومحبة بلغت بالروح غاية الصفاء،

وخرجت بها عن عالم الحسن إلى عالم وراء الحسن، فيه من الجمال والرونق ما يفوق كل ما حواه هذا الكون المشهود. وحسبنا أن نقتبس هنا مثلاً أو مثلين من حديثه عن المحبة في هذا الديوان الذي كيف تغيرت لغة هذا الواعظ المعلم.

قال:

ما أسعد تلك اللحظة حيث نجلس في الإيوان أنا وأنت!
نبدو نقشين وصورتين ولكننا روح واحد أنا وأنت!
إن لون البستان وشدو الطيور يهبنا ماء الحياة،
في تلك اللحظة التي نذهب فيها إلى البستان أنا وأنت!
وتقبل نجوم الفلك رانية إلينا بأبصارها
فنجلو القمر نفسه لتلك الأفلاك أنا وأنت
أنا وأنت، بدون أنا وأنت، نبلغ بالذوق غاية الإتحاد
فنسعد ونستريح من خرافات الفرقة إلى أنا وأنت!
وسيأكل الحسد طيور الفلك، ذات الألوان الباهرة
حينما تشاهدنا نضحك جذلين على تلك الصورة أنا وأنت

كان فقد التبريزي مؤلما لجلال الدين. وقد بقيت ذكراه عالقة في ضمير الشاعر تتردد في أشعاره الغنائية. وحين بدأ نظم المثنوي، بعد فقدان هذا الصديق الروحي بسنوات عديدة، كان شاعرنا لا يزال يستشعر نحوه المحبة والوفاء.

وقد ذكره في مواطن متعددة من المثنوي بأرفع عبارات الإعزاز والإكبار. ولم يتخذ حديثه عنه نغمة الرثاء ولا طابع البكاء، بل كان يذكره وكأنه حي، وكأنما هذا الفراق لم يحل دون ما كان يستشعره شاعرنا من محبة لصديقه وموجههُ الروحي. ومن أمثلة ما قاله عنه في المثنوي:

وحين جاء وجه شمس الدين حجبت شمس السماء الرابعة وجهها

وما دام قد ذكر فقد وجب علينا أن نقوم بشرح رمز من إنعامه

فهذا الشذي قد جذب انتباه روحي، إذ وجدت فيه رائحة قميص يوسف

فبحق صحبة السنين، اذكر لنا حالاً من أحواله الطيبة

حتى تضحك الأرض والسماء، وتزداد قدرة العقل والروح والعين مائة مرة!

وماذا أقول، وليس فيّ عرق واع، ليشرح حال ذلك الرفيق الذي لا ند له؟

وقد أنشأ جلال الدين الطريقة المولوية ذكرى لهذا الصديق الروحي. وجعل قباء شمس تبريز شعاراً لأتباع هذه الطريقة، يرتدونه فيتميزون به عن غيرهم. وكانت مجالس أتباع الطريقة تتسم بذلك الحنين الروحي، وتتردد في جوانبها ألحان الناي بما يشيع فيه من أنين وأشواق».

وبعد أن أصبح جلال الدين الرومي وحيداً بعد أن غيب الموت صديقه ومعلمه شمس تبريز اعتكف في منزله لا يخرج منه إلا في الملمات ينظم ويصنف ويبحث وينقب، يزوره بعض المخلصين المقربين من طلابه، فكان يجد فيهم بعض السلوى عن فقدان حبيبه شمس تبريز، وأول من يذكر شاعرنا من مستفيديه صلاح الدين زركوب (الصائغ(. وقد توفي هذا في عام ٦٥٧ هجرية.

واتخذ صديقاً آخر هو تلميذه حسن حسام الدين (٦٢٢ ـ ٦٨٣هـ) الذي خلد اسمه في كتابه المثنوي، حيث نسب إليه الفضل في تشجيعه على القيام بهذا العمل الضخم، كما أنه لزم الرومي خلال نظمه لسنوات، وكان يكتب ما يمليه عليه، ثم يعود فيقرؤه عليه، أو ينشده بصوته الجميل (١).

وقد أشار جلال الدين الرومي في مقدمته المنثورة للمثنوي إلى مستفيده حسام الدين، كما ذكره في المقدمات المنظومة لجميع الأجزاء، ما عدا الجزء الأول. وامتدحه بأرفع العبارات وأثنى عليه وعلى أسرته. ويقال بأن الرومي توقف عن نظم المثنوي لمدة سنتين بسبب حزن تلميذه

---

(١) مثنوي جلال الدين الرومي جـ ١ ص ٢٥.

حسام الدين على وفاة زوجته، ولم يعد في مقدوره أن يعمل مع معلمه.

وبلغ حسام الدين من المكانة عند أتباع الطريقة المولوية ما خوله ليخلف جلال الدين الرومي في رئاستها، برغم وجود خلف للرومي من صلبه، هو ابنه الشهير سلطان ولد. وظل حسام الدين شيخاً للطريقة إلى أن توفي في عام ٦٨٣ هجرية.

لقد كان الحكيم جلال الدين الرومي يتمتع بمناقب سامية، وأخلاق عالية، وأفكار عرفانية خلاقة، لم نجد في كتاباته وأشعاره ما يشير إلى أنه حاول التقرب من الملوك أو ذوي النفوذ، بل على العكس ارتبط ارتباطاً وثيقاً بتلاميذه ومريديه، ووقف ذاته على مساعدة الفقراء والمحتاجين، وتقديم المساعدات للضعفاء والمعوزين، بامانة واخلاص، وابتعد عن كل ما يمت إلى السياسة والامارة والملك. وعاش طوال حياته بعزة وكرامة، لم ترهبه الجيوش، أو تعصف بمشاعره وأحاسيسه قوتها وجبروتها مهما كبرت وعظمت، ولم يخف يوماً من الطغاة الذين كانوا في زمانه مسلطين على العالم. وتوفي يوم الأحد في ٥ جمادي الآخر سنة ٦٧٢ هجرية، بالغاً من العمر ثمانية وستين عاماً.

ويقول أتباعه ومريديه وتلاميذه بأن آخر وصاياه كانت:

«أوصيكم بتقوى الله في السر والعلانية وبقلة الطعام، وقلة المنام، وقلة الكلام، وهجران المعاصي والآثام، ومواظبة الصيام، ودوام القيام، وترك الشهوات على الدوام، واحتمال الجفاء من جميع الأنام، وترك مجالسة السفهاء والعوام، ومصاحبة الصالحين والكرام، فإن خير الناس من ينفع الناس، وخير الكلام ما قل ودل والحمد لله وحده.».

ولقي جلال الدين الرومي بعد موته من التكريم والتقدير والتعظيم ما لقي في حياته. فقد رصدت الأموال الوافرة، لبناء ضريح له، أقيمت فوقه قبة عرفت بالقبة الخضراء. وقد خصص الوزير معين الدين پراونه لذلك مبلغ ١٣٠ ألف درهم، كما تبرع علم الدين قيصر أحد أغنياء قونية بثلاثين ألف درهم.

وللدلالة على سمو المكانة الرفيعة التي وصل إليها جلال الدين الرومي فقد أشار الرومي في كتابه المنثور «فيه ما فيه» اشارات متعددة إلى الوزير معين الدين پراونة الذي كان ممثلاً للمغول في السلطة وقضى على السلطان ركن الدين في عام ٦٦٦ هجرية. ويبين حرص هذا الوزير على التقرب من الرومي وخطب وده رغم ما كان يتمتع به من سلطان.

والمثال على ذلك ما قاله الرومي في المجلس العاشر من كتابه المذكور. ففي هذا المجلس يعتذر ابن الفيلسوف الرومي بهاء الدين ولد، عن تأخر أبيه في ملاقاة الوزير معين الدين پراونة، ثم يخبره بأن والده قد قال إنه من الواجب الا يتعب الأمير نفسه بزيارتي فأنا عرضة لحالات متباينة : ففي إحدى هذه الحالات أتكلم، وفي حالة أخرى ألزم الصمت.

وفي حالة لي عناية بالخلق، وفي حالة أنا في عزلة وخلوة، وفي حالة أنا في استغراق وحيرة. وكم أتمنى الا يجيء الأمير وأنا على غير مراد قلبه، ولا فراغ لدي لمسامرته بالمواعظ والأحاديث. فمن الخير إذن أن أذهب أنا إلى الأصدقاء وأزورهم حينما أكون قادراً على مراعاتهم وإفادتهم.

وأجاب الوزير معين الدين على اعتذار الحكيم بقوله : إنني لا أجيء إلى هنا لكي يعني بي مولانا ويتحدث معي. وما حضوري هنا إلاّ لأنال الشرف بأن أكون بين مريديه. ومن الأمور التي حدثت أن مولانا كان منشغلاً، ولهذا فإنه لم يستقبلني إلا بعد أن قضيت في الانتظار زمناً طويلاً، ذلك لكي أعلم كم هو صعب وقاس أن يجيء المسلمون والأخيار إلى بابي فاتركهم

منتظرين، ولا أسرع بإدخالهم. إن مولانا قد أذاقني مرارة هذا الانتظار وأدبني حتى لا أفعل ذلك مع الآخرين..».

ومن الواضح أن الكثير من الكتاب والأدباء والمؤرخين قد تناولوا حياة ومؤلفات هذا الفيلسوف الحكيم بالدراسة والبحث والتعليق فاظهروا ما كان خافياً للأعين، ولكنهم ومع الاسف الشديد لم يتوصلوا إلى معرفة العلاقة الروحية الحقانية التي كانت تربط بينه وبين معلمه شمس تبريز، لأن هذه العلاقة ظلت سراً لا يعرفه إلّا من سبر أعماق شمس تبريز وعرف مناقبه الروحية السامية باعتباره كان حداً من حدود الدعوة الإسماعيلية وشقيق الإمام الاسماعيلي (ركن الدين خورشاه بن علاء الدين محمد).

هذا بالاضافة إلى أن والد الشاعر كان داعياً من دعاة الدعوة النزارية في فارس، واضطر إلى الهجرة بعد النكبات التي حلت بالاسماعيلية في إيران، ولكنه ظل على اتصال بالدعاة المستورين الذين كانوا موزعين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

وتذكر النصوص الإسماعيلية أن شمس تبريز كان حجة للإمام ركن الدين، وكان من كبار العلماء والحكماء والفلاسفة، وليس أمياً كما يزعم بعض المؤرخين، ولا أدري اذا كان فعلاً أمياً كيف يستطيع بهذه السهولة اقناع

عالم كبير وحكيم عظيم مثل جلال الدين الرومي بتغيير حياته الأدبية تغيراً شاملاً!!؟ وهذا مستحيل!!!إذا لا بد وأن يكون يتمتع بشخصية علمية قوية حتى يستطيع التسلل إلى أعماق جلال الدين الرومي ويؤثر في حياته هذا التأثير الذي صرفه عن كل الناس صرفاً كاملاً، وجعله يعرض عن الوعظ، وينصرف إلى حياة التأمل الحقاني، وينطلق في تجسيد تفاعلاته العقلانية بفيض غامر من الشعر الحقاني بلغ أسمى درجات العبقرية.

ومما لا شك فيه بأن شمس تبريز بما يتمتع به من قوة اقناع، وتأثير عرفاني في العقول، قد استطاع أن يقنع جلال الدين الرومي ويدله على دروب الحق، فاستجاب له بعد أن توضحت له الأمور، فأخذ عليه العهد والميثاق، فوقف نفسه، وكل ما يتمتع به من معارف وعلوم لخدمة الحقيقة واظهارها بهذه الصورة الرائعة من أشعاره الخالدة [١].

«أين المسلمون. . . ما التدبير. . . وأنا نفسي لا أعرف نفسي. . !!

فلا أنا مسيحي، ولا أنا يهودي، ولا أنا مجوسي، ولا أنا مسلم. . !!

(١) تاريخ الأدب في ايران لبراون ص ٦٥٤.

ولا أنا شرقي، ولا أنا غربي، ولا أنا بري، ولا أنا بحري،
ولا أنا من عناصر الأرض والطبيعة، ولا أنا من الأفلاك والسموات. !
ولا أنا من التراب، ولا أنا من الماء، ولا أنا من الهواء، ولا أنا من النار!!
ولا أنا من العرش، ولا أنا من الفرش، ولا أنا من الكون، ولا أنا من المكان. !!
ولا أنا من الهند، ولا أنا من الصين، ولا أنا من البلغار، ولا أنا من الكون. . !
ولا أنا من ملك العراقين، ولا أنا من بلاد خراسان. . !!
ولا أنا من أهل الدنيا، ولا أنا من أهل العقبى، ولا أنا من أهل الجنة، ولا أنا من أهل النار. . !!
ولا أنا من نسل آدم، ولا أنا من نسل حواء، ولا أنا من أهل الفردوس، ولا أنا من أهل جنة الرضوان. . !!
وإنما مكاني حيث لا مكان، وبرهاني حيث لا برهان. . .
فلا هو الجسد. . . ولا هو الروح. . . لأنني أنا في الحقيقة من روح الروح (الحبيب). . !!».

إن هذه الأبيات تجسد كل ما يختلج في أعماق جلال الدين الرومي من مبادىء أخوية إنسانية، ورسالة حقانية ناهدة إلى الإخاء، ووحدة الأديان، وحب واخلاص وشوق

إلى روح الحبيب المبدع الذي أبدع كافة الموجودات.

وله من قطعة غزلية أخرى :

«أيها العشاق... هذا هو وقت الرحيل عن هذا العالم...

وها هي طبول الرحيل تدق في السماء وتصل إلى مسامع روحي..!!

فتنبه... فقد نهض الجمال، وهيأ القافلة وشد الرحال

وطلب منا كل ما هو حلال، فلماذا تظل في غفلة... أيها المسافر...؟!

وهذه الأصوات التي تحيط بك من خلف ومن قدام انما هي أصوات الرحيل...

وفي كل لحظة من اللحظات... تسري نفس ويسري نفس إلى لا مكان..!!

ومن هذه الشموع المقلوبة ومن هذه الحجب الزرقاء..

خرجت المخلوقات العجيبة، حتى تجعل ما في الغيب عيانا..!!

وقد أصابك نوم ثقيل في هذه العجلة الدائرة..!!

فيا لوعتاه على هذا العمر الخفيف.. ويا حذار من هذا النوم الثقيل.!!

ويا قلبي.. عليك بالحبيب، ويا أيها الحبيب.. سر إلى لقاء الحبيب...

ويا أيها الرقيب.. تيقظ.. فلا يجوز لصاحب التوبة أن يغفل..!!».

ويتحدث جلال الدين الرومي بهذه القصيدة عن الموت فيقول[1] :

في يوم موتي حين ترى نعشي مشيعاً...
لا تحسبن أن لي قلباً متعلقاً بهذه الدنيا.!!
ولا تبك من أجلي، ولا تقل وا أسفاه...وا أسفاه.!!
وإلا وقعت في حبائل الشيطان، وهذا ما يؤسف له.!!
وحين ترى جنازتي فلا تقل: هذا فراق... فراق..
فإن لي في هذا الزمن وصالاً ولقاء.
وحين تودعني القبر فلا تقل: وداعاً... وداعاً..
فإن القبر ليس إلاّ حجاباً يحجب صحبة أهل الجنان.!!
فإذا رأيت الهبوط، فترقب الصعود،
ومتى كان في غروب الشمس والقمر إضرار بهما؟
إنه يظهر لك غروباً، ولكنه في الواقع شروق
واللحد يبدو كالحبس ولكنه يكون خلاصاً للروح!
وأية حبة طواها الثرى ثم لم تنبت؟
فلماذا تحمل مثل هذا الشك عن ذات الإنسان؟

---

(١) جلال الدين الرومي للفكاني ص ٣٦.

وأي دلو تدلى ثم لم يخرج حافلاً بالماء؟
فلماذا يكون ليوسف الروح شكوى من البئر؟
ألا فتغلق فمك في هذا الجانب ثم لتفتحه هناك!
فإن نشيدك المبتهج لن يكون إلا في جو اللامكان.».

ويتأمل جلال الدين الرومي ما وهب المبدع لهذا الوجود العلوي العقلاني من جمال وبهاء فيقول:
أيها الحبيب، إن جمال الروح رائع الحسن بديع.!!
ولكن جمالك وحسنك شيء غير هذا.!
فيا من ظلت السنين تصف الروح!
أظهر صفة واحدة تكون كفئاً لذاته.
إن العين لتزداد من خياله نورا
ولكنها ـ مع هذا ـ مظلمة أمام وصاله!
لقد ظللت فاغر الفم من تعظيمي لهذا الجمال
وكان لسان القلب يهتف كل لحظة: «الله أكبر»
وها هو ذا القلب قد وجد عيناً مقيمة على هواك.
أواه! لكم في هذا الهوى من غذاء للقلب والعين!».

ويغيب عن عيون الشاعر هذا الجمال الوضاح، فيشتاق إلى طلعته البهية فيقول:

«تجل بوجهك، فإن مناي الحديقة وبستان الورد..!
وافتح شفتيك، فإن مناي الشهد الكثير!

أيتها الشمس! أميطي عن وجهك نقاب السحاب،
فإن أملي تلك الطلعة المشرقة الوضاءة!».

وتمسك بخناقه أعباء الحياة، فتحن روحه الناهدة إلى المثالية التي يفتقدها فيقول:
«ما أشد ضيقي بهؤلاء الرفاق، ذوي العناصر الواهية! إني أريد أسد الله! أريد رستم بن دستان.
إن في يد كل موجود فتاتاً من الحسن. ولكني أريد منجم الملاحة ومعدنها
ومهما كنت مفلساً فلن أقبل نثار العقيق. فلا رجاء لي إلا منجم العقيق النادر المتلألىء.
وإني - من هؤلاء الخلق - لمليء بالشكوى، باك ملول. ولهذا أريد صياح السكارى وضجيجهم!
لقد أصبحت روحي ضائعة بفرعون وظلمه، ولهذا فإن أملي نور وجه موسى بن عمران.!!»

وينتقل جلال الدين الرومي من الحنين إلى الحبيب في جماله الآخاذ، وانواره المشرقة، إلى صفة الرجولة المتسامية عن شهوات الدنيا، والشامخة بصمودها في وجه المغريات، تعب من عالم الروح المثالية والكمال:
«لتطير ولتحلق أيها الطائر نحو معدنك
حتى تخلص من القفص وتصبح كالبازي خوافي وقوادم

ولترحل من ذلك الماء الملح نحو ماء الحياة.
ولترجع إلى صدر عالم الروح، تاركاً موضع صف النعال.
لتذهبي، لتذهبي أيتها النفس! وإننا أيضاً لقادمون،
من عالم الفراق إلى عالم الوصال.
وإلا فإلى متى ونحن في عالم التراب،
نملأ كالأطفال حجورنا بالتراب والحصى وحطام الخزف؟
فلنرفع أيدينا من التراب، ولنحلق نحو السماء
ولنهرب من الطفولة إلى محفل الرجال!»

والعشق الحقاني الروحي عند جلال الدين الرومي لا يعادله أي حب في هذا الوجود، وبدون العشق العرفاني لا تكون مكاشفة الحبيب والسعادة بوصاله:

«إن الروح التي ليس شعارها العشق الحقيقي
من الخير ألا توجد، فليس وجودها سوى عار!
كن ثملاً بالعشق، فإن الوجود كله عشق
وبدون العشق وشؤونه لا سبيل إلى الحبيب».

هذه المقتطفات الروحانية العرفانية التي أوردناها أخترناها من ديوان شمس تبريز الذي نظمه جلال الدين الرومي ليصور فيه معاناته الروحية وعشقه وتبتله، بعبارات رقيقة، وأنغام مليئة بالشوق والحب، والوجد والحنين،

بصدق نابع من القلب، يسيل بجزالة وخصوبة وروعة وابتكار.

«إنني مرآة! إنني مرآة ولست رجل مقالات.
ولسوف تصبح بصيراً بحالي لو أن أذنك صارت عيناً».

وفي أشعار الرومي الكثير من التفاؤل والبشر والأمل والابتهاج، حتى عندما يتحدث عن الموت وهو يعاني سكراته في لحظاته الأخيرة:

«ما الذي تعرفه أنت عن الباطن، حتى ترى أي ملك يجالسني؟
فلا تنظر ألى وجهي المصفر، فإن لي قدماً من الفولاذ!
إنني توجهت بكل وجهي إلى ذلك الملك الذي أوجدني
وعندي لهذا الذي أبدعني آلاف من الحمد والثناء.
وأنا حينا أشبه الشمس، وحيناً بحر الجواهر
وعندي في القلب فلك مضيء، أما خارج القلب فأرض مظلمة

وها أنذا في باطن خمر الوجود، أدور كالزنبور محلقاً
فلا تنظر إلى أنيني وحده، فإن لي منزلاً من الشهد!
أيها القلب! إن كنت طالب ماء فارتفع إلى الأفق الأخضر
فهناك قصر ملكي، حيث يكون أمن الآمنين
ألا ما أعظم هول هذا الماء إنه هو المدير لهذا الفلك

ولما كنت أنا دولاب هذا الماء فقد علت النضرة جبيني، على هذه الصورة!
فحين أرى الشياطين والجن والآدميين، فهم لأمري طائعون
أفلا تعلم يا سليمان أن عندي جوهر ذلك الخاتم؟
فلماذا يعتريني الذبول، وقد تفتح كل جزء مني؟
لماذا أمتطي حماراً وتحت سرجي براق؟
ولماذا أتخلف عن القمر في رفعته ولم تلدغ عقرب قدمي؟
لماذا لا أخرج من هذا البئر ما دام لديّ الحبل المتين؟
لقد أعددت لحمائم الروح أبراجاً تأوي إليها
فانطلق يا طائر روحي، فإني أمتلك مائة برج حصين!».

وما أبدع تصويره لصدق أحاسيسه، ومشاعره، وشعره الذي يفيض من وجدانه دون تكلف أو عناء، فيقول في المثنوي:
«إنني أفكر في القافية وحبيبي يقول لي: لا تفكر إلّا في طلعتي.
فماذا يكون الحرف حتى تفكر فيه؟ وما الصوت؟ إنه الشوك المحيط بالكرم.
فلأضربن الصوت بالحرف والكلام، حتى أتحدث إليك بدون هذه الوسائل الثلاث».

مصنفات جلال الدين الرومي

أعطى الحكيم جلال الدين الرومي من عقله وقلبه وحبه المعارف العقلانية الحقانية فأجزل العطاء، ساهم في العلوم الفلسفية والأدبية إسهاماً سيظل على مرور الأجيال خالداً شامخاً تتناقله الأيدي، وتتلقنه العقول إلى ما لا نهاية.

لقد كتب الرومي نثراً وشعراً، وقدم أمثلة وممثولات في قصص رمزية، وإشارات باطنية، جعلته يتبوأ الصدارة في عالم الفكر العرفاني الخلاق، ويجمع انتاجه المنثور ثلاثة كتب هي :

١ ـ المجالس السبعة : وتتضمن المحاضرات التي كان

يلقيها في مدارس الوعظ والارشاد.

٢ ـ الرسائل : عبارة عن مجموعة من الرسائل كتبها إلى أقربائه وأصدقائه ومنها واحدة كتبها إلى فاطمة خاتون ابنة صلاح الدين زركوب التي كانت زوجاً لابنه بهاء الدين ولد، وأخرى لابنه، وهاتان الرسالتان تتعلقان بخلاف وقع بين ابنه وزوجه، فحاول إزالته.

٣ ـ فيه ما فيه : مجموعة من أحاديث جلال الدين ومحاوراته ومواعظه.

٤ ـ الرباعيات : وهي منظومات أحصاها العالم الإيراني المعاصر بديع الزمان فروزانفر كما وردت في طبعة استانبول، فوجد أنها تبلغ ١٦٥٩ رباعياً، أي ٣٣١٨ بيتاً.

٥ ـ ديوان شمس تبريز : ويشمل على غزليات وقصائد حقانية يبلغ عددها ٣٥٠٠ قطعة نظمت في بحور متنوعة، ويبلغ عدد أبيات الديوان نحو ٤٣ ألف بيتاً.

٦ ـ المثنوي : وهو شكل من أشكال الشعر الفارسي، عرف في عهد مبكر من تاريخ الأدب الفارسي الإسلامي، ونظمت فيه أعمال خالدة. وتعني كلمة مثنوي بالعربية النظم المزدوج، الذي يتحد به شطرا البيت الواحد، ويكون لكل بيت قافيته الخاصة، وبذلك تتحرر المنظومة من القافية الموحدة.

والمعروف أن جلال الدين الرومي بدأ نظم المثنوي حوالي عام ٦٥٧ هجرية. وتم نظم الجزء الأول بين عامي ٦٥٧ ـ ٦٦٠ هـ. وأعقب ذلك فترة عامين من التوقف. ثم إستؤنف من جديد عام، ٦٦٢هـ ولم ينقطع الرومي عن النظم حتى وصل إلى نهاية الجزء السادس في صورته الحالية.

ويقول الدكتور كفافي بأن الجزء السادس والأخير من المثنوي ينتهي بقصة لم تصل إلى نهايتها. ومعنى ذلك أن الشاعر كان يعتزم أن يمضي في النظم إلى أبعد مما فعل. لكنه كان قد نص في بداية الجزء السادس على أنه آخر أجزاء المثنوي.

يقول:

«يا حياة القلب! يا حسام الدين! إن الميل لشديد لنظم القسم السادس. منها أنذا أحضر هدية ترضيك، بإتمام القسم السادس من المثنوي. هاأنذا أحمل إليك أيها المعنوي قسمًا سادساً به يتم المثنوي».

ويضيف الدكتور كفافي قائلاً: «هذا النقص الذي يبدو في نهاية الجزء السادس ناشيء من أن القصة الأخيرة لم تكتمل». ولم يكن هذا بسبب الموت. فقد عاش جلال الدين بضع سنوات بعد الفراغ من كتابه الخالد. ولعله

بتركه خاتمة الكتاب مفتوحة كان ينوي استئناف النظم، حين تسمح بذلك الظروف، فلم يتح له ذلك، لسبب أو لآخر.

وقد نسب إلى المؤلف جزء سابع للمثنوي، ولكن هذا الأمر لا أساس له من الصحة. ونظرة واحدة إلى مستوى الشعر الذي جاء بهذا الجزء تكشف عن ضعفه وتخلفه الشديد عن مستوى شعر جلال الدين. وقد حلل فروزانفر أبياتاً من هذا الجزء، وبين ذيوع الأخطاء فيها بصورة يخجل منها أطفال المدارس.».

ولقد قال جلال الدين الرومي في مقدمة المجلد الأول من المثنوي: «ان المثنوي هو أصل الدين، في كشف أسرار الوصول واليقين، وهو فقه الله الأكبر، وشرع الله الأزهر، وبرهان الله الأظهر، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، يشرق اشراقاً أنور من الأصباح، وهو جنان الجنان، ذو العيون والأغصان، منها عين تسمى عند أبناء هذا السبيل سلسبيلاً، وعند أصحاب المقامات والكرامات خير مقاما وأحسن مقيلا، الأبرار فيه يأكلون ويشربون، والأحرار منه يفرحون ويطربون، وهو كنيل مصر شراب للصابرين، وحسرة على آل فرعون والكافرين كما قال: يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً...».

وللمثنوي طبعات متعددة، ونسخ مخطوطة كثيرة منتشرة في مكتبات العالم، كما أن له شروحاً كثيرة بلغات مختلفة، منها الشرقي، ومنها الغربي. وبلغت عدد أبيات المثنوي في طبعة نيكولسون **٢٥٦٣٢** بيتاً، موزعة بين أجزائه الستة.

وقبل أن نستعرض بعض ما جاء في المثنوي الحافل بالمواقف والمواعظ الفلسفية الحقانية التي يعرض الموضوع من كل جوانبه ويحلله حتى يصل إلى أدق عناصره، وجزئياته، حتى أن جلال الدين الرومي المعلم يكشف في شعره الذي أورده في المثنوي عن عمق إدراكه لطبيعة النفس البشرية، ومعرفته العقلانية بأسرارها وكوامن دافعها وخلجاتها.

إن روعة المثنوي كما يقول الدكتور كفافي: «تأتي من أنه يتناول الحياة بكل جوانبها، ولكن بذوق صوفي. لانكاد نرى موضوعاً من موضوعات الأخلاق أو السلوك لم يطرقه الشاعر. ولكن سبيله في معالجته لم يكن سبيل الواعظ، بل سبيل الشاعر الفنان. وكذلك حفل المثنوي بالقرآن، والحديث، وقصص الأنبياء، والقصص الشعبي، والأساطير، والعادات، والفلسفة، والكلام، والطب، والفلك، بل ولا نكون مبالغين إذا قلنا إنه كشف عن معرفة جلال الدين بألعاب التسلية الشائعة من شطرنج

ونرد وكرة وصولجان. . . . أما تناول هذه المسائل، فقد كان بأسلوب تحليلي يتسم بالجد، ولكنه بين حين وآخر يدخل عنصر الفكاهة والسخرية فيكون بالغ الأثر، ويرسم به لوحات رائعة، لا تتاح إلا لمن أوتي قدراً عالياً من براعة التصوير.

وقد أدار الشاعر فلسفته في أغلب الأحيان حول مجموعة من القصص، التي كان كثير منها معروفاً ذائعاً، سواء منها ما كان دينياً وشعبياً. ولكن تناول الشاعر لهذه القصص، جعلها تكتسب طابعاً جديداً، وتبدو وكأن الشاعر قد ابتدعها، ذلك لما كان ينفثه فيها من روح فني، ولما كان يصوغه لها من حوار رائع، يشهد للأوزان العربية بمرونتها، واتساعها لألوان جديدة من الإبداع الفني، وقدرتها على استيعاب ملامح وسمات لم تظهر في أدبنا العربي حتى يومنا هذا. . ».

وعندما يتحدث جلال الدين الرومي عن الأنبياء يجعل آدم أبي البشر رمزاً للإنسانية. باعتبار أن الإنسان حسب رأيه أهم مخلوقات الله سبحانه وتعالى، وبقدر تفهم أبناءالبشر لمعارج الروح تكون مكانتهم، وتكون منزلتهم قريبة من المبدع الخالق. فالأنبياء وأهل الحق هم خلاصة البشر، كونهم أقرب الناس إلى جوهر البشرية، ومعدنها الصافي النقي.

ولنستمع إلى جلال الدين الرومي وهو يتحدث عن آدم فيقول :

«إن أبا البشر آدم ـ أمير علم الأسماء ـ كان كل عرق من عروقه ينبض بآلاف العلوم
إن روحه منحت كل شيء ـ كما كان ويكون حتى النهاية . .
إن عين آدم حين أبصرت بالنور الطاهر، تجلت لها أرواح الأسماء وأسرارها وعندما أبصرت الملائكة أنوار الحق في آدم، خروا سجداً وسارعوا لتمجيده.
فهذا آدم الذي أحمل اسمه، ولو أنني مدحته حتى القيامة لما وفيته حقه . ».

ويرى جلال الدين الرومي أن الإنسان العارف العاشق يصعد بروحه إلى أسمى من الفلك، وأعظم من الملائكة، فيقول :

«إن صوت العشق يطرق أسماعنا من شمال ويمين
ها نحن أولاء ذاهبون إلى الفلك، فمن ذا الذي يعتزم شهود هذا المحفل؟
لقد كنا في الفلك، وكنا رفقاء الملائكة
فلنرجع إليه أيها السيد، فهناك مدينتنا
بل نحن أعلى من الفلك، وأعظم من الملك
ولماذا لا نفوقهما، ومنزلنا الكبرياء؟».

وفي أماكن عدة من المثنوي يؤكد الرومي على أن الانسان له الحق في الاختيار ما بين الخير والشر، لأنه مسؤول أمام المبدع الذي جعله في المرتبة الأولى بين المخلوقات وفضله عليهم عن كل ما يرتكبه من أفعال :

«لو لم يكن هناك اختيار، فما هذا الخجل من الإثم؟ وما هذا الأسف والتحرج والحياء؟
ولماذا يكون زجر الأساتذة للتلاميذ؟ولماذا ينصرف الخاطر عما استقر عليه من تدبير؟

وقال في هذا المعنى:

فلو لم يكن فعل الخالق واقعاً، لما كان لك أن تقول لإنسان: لم فعلت هذا؟

إن قولك: أعمل هذا أو ذلك غدا، إنما هو دليل اختيارك، أيها الصنم!

إن جملة القرآن أمر ونهي ووعيد. فمن الذي رأى أمراً يوجه لحجر أو لمرمر؟».

وكما نوهنا أنفاً فجلال الدين الرومي يبشر بالمحبة والإخاء بين أبناء البشر، وينصح بالإبتعاد عن الحروب والتقاتل، وإيجاد العدالة والمساواة بين الناس مهما اختلفت ألوانهم وأشكالهم. ورفض التعصب الديني؛ فيقول:
«وما حروب البشرية إلا كصراع الأطفال، كلها تافهة،

لا معنى لها ولا لب.

إنك عابد الصنم لو بقيت أسير الصورة، فدع صورة الصنم وانظر إلى الحقيقة!

فإذا كنت حاجاً فاطلب لك رفيقاً من الحجاج، سواء كان هندياً أو تركياً أو عربياً. ولا تنظر إلى صورته ولونه، بل انظر إلى عزمه وقصده!

فإن كان أسود اللون فإن له ذات قصدك. فسمه أبيض، فإنه شريكك في اللون.

إن اللون الظاهري يكون للتنور، أما الإنسان فانشد في باطنه الألوان من أحمر وأصفر.

فالألوان الجميلة تجيء من وعاء الصفاء. وأما لون الأشرار فمن ماء الخفاء الأسود» ولقد نصح الرومي تلامذته وأتباعه بعدم التعصب الديني، لأن الأنبياء تعاونوا على مر العصور لهداية البشرية، واتحادها في الجوهر الواحد:

«فإن أنت وضعت عشرة مصابيح في مكان واحد، فقد يكون كل منها مختلفاً في صورته عن الآخر.

ولكنك لا تستطيع أن تفرق بصورة قاطعة بين نور كل منها، إذا نظرت إلى نورها! وإن أنت عددت مائة من ثمار التفاح أو السفرجل، فإن هذه لا تبقى مائة، بل تصبح واحدة، حين تعصرها».

ولا يغفل جلال الدين الرومي في أشعاره ونصائحه وأقواله التحدث عن المرأة ومكانتها السامية، وعن المساواة والعدالة، والابتعاد عن الظلم والعسف والاضطهاد فيقول:

«قال الرسول: إن النساء يغلبن العقلاء وأصحاب القلوب، أما الجهلاء فإنهم يغلبون المرأة، لأن حدة الحيوان قد احتسبت فيهم.

إنهم خالون من الرقة واللطف والوداد، لأن الحيوانية غالبة على طبيعتهم.

فالمحبة والرقة هما صفة الإنسانية، وأما الغضب والشهوة، فهما صفة الحيوانية.

فيا أيها الذي يحفر بئراً من الظلم، إنك لتنصب لنفسك شركاً:

فلا تجعل نسيجك حول نفسك، كما تفعل دودة الحرير! إنك تحفر البئر لنفسك، فاحفرها بقدر!

ولا تكن موقناً أن الضعفاء لا معين لهم. واتل من القرآن: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾

فلو أنك كنت فيلاً يهرب منك خصمك، فجزاؤك مذكور في قوله تعالى: ﴿وأنزل عليهم طيراً أبابيل﴾

ولو طلب الأمان ضعيف من أهل الأرض، لهب لنجدته جيش السماء.». وإذا تعرضنا لكافة المواضيع

الإجتماعية التي عالجها جلال الدين الرومي في شعره لطال بنا المطاف، لذلك نكتفي بهذا القدر، وننتقل إلى بعض القصص والحكايات التي قدمها الرومي في المثنوي، فنورد بعضها زيادة بالفائدة، وتدليلاً على مقدرته الفائقة في هذا الباب.

قصة البقال والببغاء[1]

كان في سالف الـزمن بقال، وكـان له ببغـاء حسن الصوت أخضر اللون فصيح.

كان على الدكان يقف حارساً له، ويحدث التجار جميعاً بلطيف المقال.

فقد كان ناطقاً في خطاب الآدميين، كما كان حاذقاً في غناء الببغاوات

وذات يوم قفز من ناحية الدكان إلى ناحية أخـرى، فأراق زجاجات زيت الورد.

(١) جلال الدين الرومي للكفافي ص ٢٤١.

وجاء صاحبه من ناحية المنزل، وجلس على الدكان فارغ البال، كأنه من السادة.

فرأى الدكان قد غمره الزيت، وثيابه لزجة، فضرب الببغاء على رأسه، فصار أقرع من الضرب.

وامتنع الببغاء عن الكلام بضعة أيام، فأصبح الرجل البقال يتأوه من الندم.

فكان يقتلع شعر لحيته، ويقول: واأسفاه! إن شمس نعمتي أصبحت تحت السحاب.

ليت يدي كانت قد كسرت في تلك اللحظة. كيف ضربت هذا الحلو اللسان على رأسه؟

وجعل يعطي الهدايا لكل درويش، لعله يسترد نطق طائره.

وبعد ثلاثة أيام من الحيرة والألم، كان يجلس على الدكان، كأنه يائس.

وكان يظهر للطائر كل لون من العجائب، لعله يبدأ النطق من جديد.

وفي تلك اللحظة، كان درويش عاري الرأس يمر أمامه، وكان رأسه خالياً من الشعر كأنه ظهر طاس أو طشت.

فنطق الببغاء في ذلك الوقت، وصاح بالدرويش: يا فلان!

لماذا اختلطت أيها الأقـرع بغيرك من القـرع؟ لعلك أرقت الزيت من الزجاجة!

فأضحـك قياسه الخلق، إذ ظن نفسه مثـل صاحب الدلق.

فلا تتخذ من نفسك مقياساً لأحوال الطاهرين، مهما تشابهت في الكتابة كلمة شير (بمعنى أسد)، وشير (بمعنى لبن).

ولهذا السبب ضلت جملة أهل العالم، فقليل من الناس من يعرف أبدال الحق.

فقد رفعوا أنفسهم إلى مستوى الأنبياء، وظنوا أنفسهم مثل الأولياء.

وقالوا: انظروا! إننا بشر وهم بشر، ونحن وإيـاهم أسارى للنوم والطعام.

ومن عماهم لم يدركوا أن هناك فرقاً لا نهاية له بينهم وبين هؤلاء.

فالنحل كلها تأكل من مكان واحد، ولكن يجيء من بعضها الإبر، ومن بعضها الآخر يأتي العسل.

والغزلان نوعان، كلاهما يأكل العشب ويشرب الماء، ولكن أحدهما يجيء منه البعر، ومن الآخر يأتي المسـك المصفى.

ومن القصب صنفان يشربان من ماء واحـد، ولكن

أحدهما خال، والآخر حافل بالسكر.

فتأمل مائة ألف من أمثال هذه الأشباه، وانظر كيف يفصل بينها طريق طوله سبعون عاماً.

فهذا يأكل فتنطلق منه القذارة، وذاك يأكل فيصبح كله نوراً إلهياً!

وهذا يأكل فيتولد منه البخل والحسد، وذاك يأكل فيفيض منه عشق الأحد.

وهذه أرض طيبة، وتلك ملحة رديئة، وهذا ملك طاهر، وذاك شيطان ووحش ضار.

فلو تشابهت الصورتان فذاك جائز، فالماء الملح والماء العذب شبيهان في الصفاء.

وليس يدري الفرق بينهما سوى صاحب ذوق، فأدركه، فهو الذي يعرف الماء العذب من الماء الملح.

فمن الناس من قاس السحر بالمعجزة، وهو يظن أن كليهما مبني على المكر.

فسحرة عصر موسى، بدافع من الحقد، أمسكوا عصا مثل عصاه.

وبين هذه العصا وتلك العصا فرق واسع! وبين هذا العمل وذاك العمل طريق عظيم!

فهذا العمل تشيعه لعنة الله، وذاك العمل تقابله رحمة الله!

هذه الحكاية الرمزية الحقانية قصد من وراءها النصح والإرشاد إلى عدم الأخذ بالقياس، والعمل بما يقيسه بعض الفقهاء، لأن هؤلاء لا يفرقون بين الماء المالح والماء العذب، فردوا هذه الأمور إلى أهل الحق أصحاب الذوق لأنهم يعرفون ماهية عصا موسى وماهية عصا السحرة!!

الأسد والوحوش[1]

كانت طائفة من الوحوش في واد طيب، وكانت دائمة الذعر من الأسد.

لقد أصبح هذا المرعى غير هنيء لجملة الوحوش، لأن الأسد كثيراً ما خرج من مكمنه واختطفها.

فاحتالوا للأمر، وجاءوا الأسد قائلين: إنا سوف نشبعك دوماً بوظيفة ثابتة.

فلا تبغ صيداً بعد تلك الوظيفة، حتى لا يصبح ذلك المرعى لنا مر المذاق.

(١) جلال الدين الرومي للكفافي ص ٢٤٩.

جواب الأسد للوحوش وقوله بفائدة السعي

قال الأسد: أقبل إن رأيت منكم وفاء لا مكراً، فكم بلوت المكر من زيد ومن بكر.

فإني ضحية فعل الناس ومكرهم! إني لديغ الحية والعقرب!

لكن إنسان نفسي، الكامن في كياني، أسوأ من كل الناس في مكره وغدره.

ولقد سمعت أذني قول الرسول: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، فاخترت هذا بقلبي وروحي.

كيف رجح الوحوش التوكل على السعي والإكتساب[1]

فقالت جملة الوحوش: أيها الحكيم العالم! دع الحذر، فليس يغني عن قدر!

إن في الحذر الحيرة البالغة والشر! فاذهب وتوكل على الله، فالتوكل خير.

ولا تضرب بقبضتك القضاء، أيها العنيف الحاد، حتى لا يلتحم القضاء في صراع معك.

فالمرء يجب أن يكون ميتاً أمام حكم الحق، حتى لا تأتيه الضربة من رب الفلق.

(١) المثنوي لجلال الدين الرومي جـ ٢ ص ٢٢٣.

كيف رجح الأسد السعي والإكتساب على التوكل والتسليم .

فقال الأسد: إذا كان التوكل هو المرشد، فإن الإفادة من الأسباب هي أيضاً سنة النبي .

فقد نادى الرسول بأعلى صوته: اعقل فخذ بعيرك، وتوكل على الله .

واستمع إلى مغزى قول القائل: الكاسب حبيب الله، ولا تكن بتوكلك متراخياً عن الأسباب والوسائل!

كيف رجحت الوحوش التوكل على الإجتهاد[1]

فقال القوم: اعلم أن الكسب من ضعف الخلق، وأنه لقمة مزورة على قدر الخلق!

فليس هناك كسب أحسن من التوكل، وأي شيء أحب إلى الله من التسليم؟

فكم يفُر المرء من بلاء ليقع في بلاء آخر! وكم يهرب المرء من الثعبان ليلقى التنين!

لقد احتال الإنسان، فكانت حيلته شركاً وقع فيه، وكان موته فيما حسب أنه حياته!

---

(١) جلال الدين الرومي للكفافي ص ٢٥١ .

فقد أوصد الباب والعدو في منزله! وإن حيلة فرعون لم تكن إلا قصة من ذلك النوع.

فهذا الحقود قد قتل ألوف الأطفال، على حين كان الطفل الذي يبحث عنه في منزله!

فما دام بصرنا يعاني الكثير من العلل، فاذهب وأفن بصرك في بصر الحبيب!

فإذا ما أصبح إبصاره إبصارنا فنعم العوض! إنك ببصره تظفر بكل أمل ومطلب.

فالطفل ما لم يشتد ساعده ويقوى على الجري، فليس له من مركب سوى عنق أبيه.

فإذا ما أظهر الفضول، واستخدم يديه ورجليه، وقع في العناء والشقاء.

إن أرواح البشر ـ قبل خلق الأيدي والأرجل ـ كانت، لوفائها، تحلق في جو الصفاء.

وعندما قيدت الأرواح بأمره تعالى: «اهبطوا» صارت أسيرة الغضب والحرص والرضا.

إننا عيال الله نطلب منه اللبن. وقد قال الرسول: الخلق عيال الله.

فذلك الإله الذي ينزل الغيث من السماء، قادر على أن يمنحنا الخبز رحمة منه وإشفاقاً.

كيف أعاد الأسد ترجيح الجهد على التوكل

قال الأسد: نعم، ولكن رب العباد وضع سلمًا أمام أقدامنا.

فالواجب أن نصعد السلم درجة درجة نحو القمة. أما القول بالجبر فإنه طمع ساذج.

إن لك ساقين، فكيف تجعل من نفسك أعرج؟ وإن لك يدين فكيف تخفي أظافرك؟

فالسيد عندما يضع الفأس في يد عبده، يتضح مراده بدون حاجة إلى القول.

فاليد مثل الفأس، إشارة منه إلينا، والتفكر في العقبى عباراته.

فإن جعلت إشاراته في قلبك، بذلت الروح من أجل تحقيق ما أشار به.

إن السعي لشكر نعمته هو القدرة، وأما إنكار النعمة فهو الجبر.

وشكرك على القدرة يزيد من قدرتك، وأما الجبر فيخرج تلك النعمة من يديك.

فاعتقادك الجبر يكون كالنوم في الطريق، فلا تنم! كن يقظاً حتى ترى الباب والصرح!

حذار أيها الجبري الذي لا يعتبر! لا تنم إلا تحت هذه الشجرة المثمرة.

فالريح سوف تهز الغصون في كل لحظة، فتساقط على النائم نقلاً وزاداً.

إن اعتقاد الجبر كالنوم بين قطاع الطريق، ومتى يجد الأمان طائر تأخر عن وقته؟

فإذا توكلت على الله فتوكل عليه في عملك. ألق البذور ثم توكل على الخالق الجبار!

كيف عاودت الوحوش ترجيح التوكل على الجهد

فعلا صوت الوحوش جميعاً قائلين له: ما لهؤلاء الحريصين الذين زرعوا الأسباب، وهم ألوف مؤلفة من الرجال والنساء، ظلوا محرومين من مواتاة الزمن؟

فقد مرت آلاف القرون منذ بدء العالم، وكان كل منها يفغر مائة فم، كفم التنين.

فذلك الفريق من الأذكياء مكر مكراً كاد يقتلع الجبل من أساسه.

فلم يحقق لهم ذلك الصيد والعمل، إلا ما قسم لهم من الأزل!

لقد فشلوا جميعاً في التدبير والعمل، وبقي قضاء الخالق وأحكامه.

الأسد يعاود ترجيح الجهد على التوكل ويبين فوائد السعي

فقال الأسد: نعم! ولكن انظروا أيضاً إلى الجهود التي بذلها الأنبياء والمؤمنون!

لقد بارك الله تعالى جهودهم، وما لاقوه فيها من جفاء وحر وبرد.

فجاءت تدابيرهم في جملة الأحوال لطيفة، وكل ما جاء من لطيف فهو لطيف.

لقد صادت شباكهم طائر الفلك، وتحققت لهم الزيادة في كل ما كان ينقصهم.

فاجتهد، أيها السيد، ما استطعت، في اتباع طريق الأنبياء والأولياء.

وأكون كافراً لو أن السائر في طريق الإيمان والطاعة أحدث في أية لحظة ضراً.

إنك لست مكسور الرأس. فلا تعصب رأسك! وابذل جهدك يوماً أو يومين، ثم اضحك إلى الأبد!

ومن طلب الدنيا فقد أراد سوء المقام، وأما من طلب العقبى فقد تطلع إلى صلاح الحال.

إن المكر لكسب الدنيا بارد سقيم، أما المكر لتركها فوارد مقبول.

فهذه الدنيا سجن نحن به سجناء، فاحفر في ذلك

السجن حفرة، وخلص نفسك.

وما الدنيا؟ إنها الغفلة عن الله، وليست قماشاً وفضة، وميراثاً ونساء.

وإن المال الذي تحمله من أجل الدين لهو نعم المال الصالح، كما قال الرسول.

فالماء في السفينة هلاك لها، وأما تحت السفينة فهو سند لها.

وما كان سليمان يلقب نفسه إلا بالمسكين، ذلك لأنه صرف من قلبه الاعتزاز بالمال والملك.

فمع أن الدنيا بأكملها كانت ملكاً له، فقد بدا ذلك الملك عديم القيمة أمام عين قلبه.

فالجهد حق، كما أن الدواء حق والمرض حق. وما منكر الجهد إلا جاهد في إنكار جهده.

تقرير رجحان الجهد على التوكل

ولقد ذكر كثيراً من البراهين على هذا النحو، حتى عجز هؤلاء الجبريون عن جوابه.

فالثعلب والغزال والأرنب وابن آوى تركوا القول بالجبر، وانصرفوا عن الجدال.

وعقدوا العهود مع الأسد المفترس مؤكدين له أنه لن يضار من هذا الإتفاق.

وأن رزقه اليومي سيأتيه بدون عناء، فلا تكون له حاجة بعد إلى مزيد من الطلب.

فكل من كانت تقع عليه القرعة يوماً، كان يقفز مسرعاً كالقرد، نحو ذلك الأسد.

وعندما جاء دور الأرنب ليتجرع تلك الكأس، صاح قائلاً: أما من نهاية لهذا الجور؟

جواب الأرنب

فقال الأرنب: أيها الرفاق! أمهلوني رويداً حتى تخلصوا بمكري من هذا البلاء!

فتجد أرواحكم الأمان بمكري، ويبقى ذلك الأمان ميراثاً في عقبكم.

فكل نبي كان يدعو أمته ـ مثلما أدعوكم ـ حتى يخلصها.

اعتراض الوحوش

فقال له القوم: أصغ إلينا أيها الحمار! إنك أرنب فلا تجاوز بنفسك حد طاقتها!

أي كلام دار بخلدك، من غير أن يكون قد دار بخاطر من هم أفضل منك؟

أمصاب أنت بالعجب؟ أم أن القضاء يلاحقنا؟ وإلا فمتى كان مثل هذا القول لائقاً بك؟

جواب الأرنب

فقال الأرنب: أيها الصحاب! إن الله الهمني، فوقع لضعيف مثلي رأي قوي!

ولقد علم الله النحل ما لا يتحقق علمه للأسد أو لحمار الوحش.

فهي تصنع بيوتاً مليئة بالشهد، وهذا باب من العلم فتحه الله لها!

وتلك الحيلة التي علمها الله دودة الحرير، أيعلم فيل مثلها.

إن آدم - وهو المخلوق من الطين - تعلم العلم من الحق، فأشرقت أنوار علمه في السماء السابعة.

فيا عابد الصورة! إلام اعتدادك بالصورة؟ إن روحك المجردة من المعنى لم تتحرر منها.

فلو كانت الإنسانية بالصورة (وحدها) لتساوى أحمد وأبو جهل.

كيف عادت جماعة الوحوش لمطالبة الأرنب بكشف سر تفكيره

فقالت الوحوش بعد ذلك: أيها الأرنب الخفيف الحركة. أفصح لنا عما هو كامن في إدراكك.

يا من اشتبكت مع الأسد في صراع! اطرح علينا ذلك الرأي الذي فكرت فيه.

إن الشورى تلهم الإدراك والفهم، كما أن العقل يلقى العون من العقول الأخرى.

ولقد قال الرسول: يا مبرم الرأي! شاور في الأمر، فالمستشار مؤتمن.

كيف أخفى الأرنب سره عن الوحوش

فقال الأرنب: ليس كل سر مما تجوز إذاعته. ففي اللعب قد يجيء الزوج فرداً، وقد يجيء الفرد زوجاً.

وإن أنت ـ من أجل صفاء المرآة ـ تنفست في وجهها، فسرعان ما تغدو مظلمة أمامنا.

فعليك بالإقلال من الحديث عن أمور ثلاثة تلك هي ذهابك وذهبك ومذهبك.

فكم لك من خصم أو عدو في كل من تلك الأمور، يقف لك بالمرصاد عندما يعلم بأي منها.

فلو أخبرت بسرك رجلاً أو رجلين فوداعاً له، فكل سر جاوز الأثنين شاع.

قصة مكر الأرنب

لقد تأخر الأرنب في الذهاب ساعة، ثم مثل أمام

الأسد، المتحفز المخالب.

فكان من تأخر الأرنب في الذهاب، ما جعل الأسد يمزق الأرض ويزأر.

وقال: لقد قلت إن عهد هؤلاء الأخساء عهد فج واه، لا يتحقق.

إن خداعهم قد أوقعني من فوق حماري، فالإم، إلام يخدعني هذا الدهر؟

فما أشد عجز الأمير ذي اللحية الواهية، حينما لا يرى - من جراء الحمق - ما وراءه ولا ما أمامه.

فهناك طريق مستوٍ كمنت تحته الحفر، وهناك أسماء كثيرة لكنها تفتقر إلى المعنى.

إن الألفاظ والأسماء مثل الحبائل، واللفظ الحلو هو الرمل الذي يتشرب ماء عمرنا.

لقد كان الأسد يقول في حدة وغضب: إن عدوي قد أغلق عيني عن طريق أذني!

لقد كبلني مكر هؤلاء المجبرين، كما أن سيفهم الخشبي قد آلم جسمي.

فلن أصغي من بعد إلى هذا الهراء، فذلك كله صوت الشياطين والغيلان.

فمزقهم أيها القلب، ولا تتوان (في ذلك). مزق جلودهم، فما هم إلا جلود!

لقد تلكأ الأرنب في الذهاب طويلاً، وأخذ يدرب نفسه على المكر الذي انتواه.

فمضى على الطريق - بعد طول الإبطاء - ليهمس في أذن الأسد بسر أو سرين.

وكم من عوالم تصل إليها تجارة العقل! وما أوسع المدى الذي تمتد إليه بحار الفكر!

إن العلم خاتم ملك سليمان، فالعالم كله صورة والعلم هو الروح!

وبفضل العلم لم تبق لمخلوقات البحار، ولا الجبال، ولا الصحارى حيلة أمام الإنسان.

فالنمر والأسد يرهبانه، فهما أمامه مثل الفأر! وتمساح النهر من خوفه أصابته الصفراء، وتملكه الإضطراب.

ومن خوف الإنسان لجأت الجن والشياطين إلى السواحل، واتخذ كل منها مكاناً خفياً.

كيف ذهب الأرنب إلى الأسد، وكيف غضب عليه الأسد

وبينما كان الأسد محتدماً غاضباً ثائراً، رأى ذلك الأرنب قادماً نحوه من بعيد.

لقد كان يتقدم مسرعاً جسوراً، غير هياب، وقد بدا عليه الغضب والعنف، وحدة الطبع، وعبوس الوجه!

فالمجيء بانكسار مثار للتهم، وأما الجسارة ففيها دفع لكل الريب.

فلما دنا واقترب من الأعتاب، صاح به الأسد: ها أنت ذا أيها الخسيس!

أنا الذي مزق الثيران إرباً، وعرك أذن الفيل القوي!

أيزدري مشيئتي على هذا الوجه نصف أرنب مثلك؟

ألا فلتدع النوم، وغفلة الأرانب، ولتصغ - أيها الحمار - إلى زئير هذا الأسد.

كيف اعتذر الأرنب

فقال الأرنب: أمانا فإن لي عذراً، لو أن عفوك الملكي يبسط لي يداً!

فقال الأسد: أي عذر لك؟ يالقصور هؤلاء البله! وهم في هذا الزمان يمثلون أمام الملوك!

إنك طائر تأخر عن وقته، والواجب قطع رأسك، فليس يجوز للإصغاء إلى عذر الأحمق.

إن عذرك، أيها الأرنب، مجرد من الحكمة، فأي أرنب أنا حتى تدخله أذني؟

فقال الأرنب: أيها الملك هب اعتباراً لمن لا اعتبار له، واستمع إلى عذر مظلوم!

ولا تدفع ضالاً عن طريقك، ففي ذلك - على

الخصوص - زكاة عن جاهك!

إن البحر الذي يمد كل الأنهار بمائه، يحمل القمامة على رأسه، وعلى وجهه.

ولن ينتقص من البحر هذا الكرم، فالبحر لا يزيد بالكرم ولا ينقص.

فقال الأسد: إني لذو كرم، ولكني أضع الكرم في موضعه. إني أقص لكل امريء ثوبه على قدر قامته.

فقال الأرنب: ألا فلتستمع إلي، فإن لم تجدني أهلاً للطفك، فإني أسلم رأسي إلى تنين عنفك!

لقد مضيت على الطريق وقت الإفطار، وكنت متجهاً مع رفيقي إلى الملك.

وكانت الجماعة قد أرسلتني إليك بصحبة أرنب آخر.

فتصدى لعبدك أسد في الطريق، وهاجم الرفيقين المتجهين إليك.

فقلت له: إننا من عبيد ملك الملوك. إننا رفيقان صغيران في خدمة هذا البلاط.

فقال: ملك الملوك؟ من هذا؟ الا فلتستح، ولا تذكر أمامي كل خسيس!

فلسوف أمزقك وأمزق ملكك، لو أنك ورفيقك تحولتما عن بابي.

فقلت له: الا فلتخل سبيلي، حتى أرى وجه مليكي

مرة أخرى، وأحمل إليه خبراً عنك.

فقال: لتترك رفيقك رهينة عندي، وإلا فإنك - في شرعتي - تكون الضحية.

وقد أطلنا التضرع إليه، فلم يجد نفعاً، فأمسك برفيقي وتركني أمضي وحيداً.

وكان رفيقي يعدل ثلاثة مثلي ببدانته، وكان تفوقه في اللطف والملاحة يعدل تفوقه في الجسم.

إن هذا الأسد قد سد أمامنا الطريق بعد اليوم، فتقطع بذلك حبل عهودنا!

فاقطع الأمل من وظيفتك بعد اليوم! إني أقول لك الحق، والحق مر!

فإذا كانت الوظيفة واجبة لك فطهر الطريق. هيا أقبل، وادفع شر هذا الجسور!

كيف استجاب الأسد للأرنب وسار معه

فقال الأسد: باسم الله، هيا بنا إلى حيث يكون. تقدم أمامي إن كنت تقول الصدق، حتى أعطيه ومائة من أمثاله جزاءهم، فإن كنت كاذباً أنلتك جزاءك.

فسار الأرنب أمامه كالدليل، ليقوده نحو شركه،

نحو بئر كان قد حدد مكانه، بئر عميق جعل منه فخاً لروح الأسد.

وتقدم الأثنان نحو البئر، فهاك أرنباً كالماء تحت التبن!
لقد كانت شباك مكره هي الوهق الذي صاد الأسد
فواعجبا لأرنب صاد أسداً!

إن موسى بمفرده، جر فرعون إلى نهر النيل، مع جيشه وجمعه الكثيف.
ولقد شقت بعوضة أم رأس النمرود، بنصف جناح، غير مبالية بذاته!
فتأمل حال من أصغى إلى قول العدو، وجزاء من كان صديقاً للحسود!
حال فرعون الذي استمع إلى هامان، وحال النمرود الذي أصغى إلى الشيطان.
فإذا كان العدو يخاطبك بأسلوب المودة، فاعلم أن حديثه شرك، وإن جاء في صورة الحب.
وإن أعطاك القند فاعلم أنه سم، وإن مس جسمك بلطف، فاعلم أن ذلك اللطف قسوة وبغضاء.

إنك حين يقع القضاء لا تبصر غير القشور، ولا تعرف الأعداء من الأصدقاء.

فإذا وقع هذا فلتشرع في الابتهال، ولتأخذ نفسك بالتضرع والتسبيح والصيام.
ابتهل إلى الله قائلاً: يا علام الغيوب! لا تسحقنا

بحجر من مكر السوء!

وإن كنا قد أتينا فعل الكلاب، فلا تطلق علينا الأسد من مكمنه، يا خالق الأسد.

ولا تجعل للماء العذب صورة النار، ولا للنار صورة الماء.

إنك حين تسكرنا بشراب قهرك، تجعل للعدم صورة الوجود.

فما السكر؟ إنه حجاب للعين عن الإبصار، فيظهر لها الحجر جوهراً، والصوف عقيقاً!

وما فقدان الوعي؟ إنه إبدال للحس، فيبدو للعين خشب الطرفة صندلاً.

كيف تخلف الأرنب وراء الأسد عندما اقترب من البئر

وعندما اقترب الأسد من البئر، رأى إن هذا الأرنب قد تباطأ في الطريق وتخلف.

فقال له: لماذا توانيت في السير؟ لا تتخلف وأقبل!

فقال الأرنب: وأين لي قدم تسير، وقد ضاعت يداي وقدماي، وارتعدت روحي، وانخلع قلبي.

أفلا ترى لون وجهي مصفراً كالذهب؟ إن لوني ينبئك بخبر عن باطني.

ولما كان الحق قد اعتبر السيما وسيلة للتعرف، فقد

بقيت عين العارف متعلقة بالسيما.

إن اللون والرائحة ينبئان كما ينبىء الجرس، وكذلك ينبىء صهيل الفرس عن الفرس.

وصوت كل شيء يجيء بخبر عنه، فبه تميز بين نهيق الحمار، وصرير الباب.

ولقد قال الرسول في التمييز بين الناس: المرء مخفي تحت لسانه.

إنه وقع بي ما سلبني اليد والقدم، بل ما سلبني لون وجهي وقوتي وسيماي.

بل ما يحطم كل شيء أصابه، ويقتلع كل شجرة من جذورها وأصلها.

بل أصابني ما يميت الإنسان والحيوان والنبات والجماد.

إن البستان ليرتدي حلة الخضرة حيناً، وحيناً يتعرى، وذلك ليكون العالم حيناً صابراً، وحيناً شكوراً.

والشمس التي تشرق في لون النار، تصبح في ساعة أخرى منقلبة الرأس نحو المغيب.

والنجوم الملتمعة في جوانب السماء الأربعة، إنما هي ـ بين لحظة وأخرى ـ مبتلاة بالإحتراق.

والقمر الذي يفوق النجوم في الجمال، غدا من مرض التحول وكأنه الخيال.

وهذه الأرض الساكنة الوقور، تجعلها الزلزلة مرتعدة

كاللهب

وكم من جبل جعله هذا البلاء المتوارث فتاتاورمالا.

والماء العذب الذي كان قريناً للروح، أصبح في الغدير الراكد أصفر اللون، مر المذاق، معتكراً.

والنار المنتفخة بريح الغرور، تقضي بالموت عليها هبة ريح.

والفلك الدوار الدائب على السعي والتنقيب، ليس حاله إلا كحال أبنائه.

فهو حيناً في الحضيض، وحيناً في الوسط، وحيناً في الأوج، وبه أفواج وأفواج من كواكب السعد والنحس.

فيا أيها الجزئي الذي هو من كليات مختلطة! لتكن ذاتك سبيلك لتفهم حال كل موجود.

وإذا كانت الكليات معتلة سقيمة، فكيف لا تكون جزئياتها مصغرة الوجوه؟.

وبخاصة ذلك الجزئي الذي تجمعت به الأضداد، واتحد فيه الماء والتراب والنار والهواء.

فليس من عجب في أن تفر الشاة من الذئب، وإنما العجب هو أن يتعلق قلب الشاة بالذئب.

إن الحياة تآلف بين الأضداد، وما الموت إلا قيام للحرب بينها.

ولقد ألف لطف الحق بين الأسد وحمار الوحش، هذين الضدين المتباعدين!.

وإذا كان هذا العالم مريضاً سجيناً، فأي عجب يكون لو فني المريض؟.

فعلى هذا الوجه تحدث الأرنب بالنصح إلى الأسد، وقال: إني قد تأخرت من جراء تلك القيود.

كيف سأل الأسد الأرنب عن سبب تأخره.

فقال الأسد: أذكر لي سببا خاصاً من أسباب العلة، فذلك ما أبتغيه.

فقال الأرنب: إن ذلك الأسد يسكن هذا البئر، وهو ـ في هذه القلعة ـ آمن من الآفات.

فقال الأسد: فلأقهرنه بضرباتي! ألا فلتقدم، ولتنظر أهذا الأسد حاضر في البئر؟

فقال الأرنب: إنني قد احترقت بتلك النار، فلعلك تقودني إلى جانبك، حتى أستطيع بمؤازرتك يا معدن الكرم أن أفتح عيني، وأنظر في البئر.

وعندما اقتاد الأسد الأرنب إلى جانبه، جرى في رعاية الأسد نحو البئر.

فلما نظر إلى الماء في البئر، تجلى في الماء خيال الأسد والأرنب.

وسرعان ما رأى الأسد خياله في الماء. لقد كان الخيال في هيئة أسدوإلى جانبه أرنب سمين.

فلما رأى الأسد خصمه في الماء، ترك الأرنب، واندفع إلى داخل البئر.

لقد وقع في البئر الذي كان قد حفره، ذلك لأن ظلمه كان مرتداً إلى رأسه.

إن الظلم قد أصبح للظالمين جباً حالك الظلمة، ولقد قال بهذا جملة العلماء.

وكل من كان أكثر ظلمًا ، كانت بئره أكثر هولا. إن العدل الإلهي قد أمر بأسوأ العقاب لأسوأ الذنوب.

لقد أبصر الأسد ذاته في البئر، ولكنه لغضبه في تلك اللحظة لم يعرف ذاته من عدوه.

لقد رأى في صورته عدوا له، فلا جرم أن سل على نفسه سيفاً! فكم من ظلم تراه في الناس، وما هو سوى طبعك، وقد ركب فيهم، يا ابن آدم.

ففيهم قد أنعكس وجودك، بنفاقك وظلمك، وقبيح غفلتك.

إنك أنت ذلك الشرير، وإنك لتوجه ذلك الطعن إلى نفسك، بل إنك لتعلن نفسك في هذه الساعة.

ولست تعاين هذا القبح في نفسك، وإلا لناصبتها العداء، بروحك.

إنك لتحمل على نفسك أيها الرجل الغر كما حمل هذا الأسد على نفسه.

فإذا ما وصلت إلى قرارة طبع ذاتك، علمت أن هذه الدناءة كانت منك.

إنك قد وضعت امام عينيك زجاجة زرقاء، ولهذا السبب بدا لك العالم أزرق اللون.

فإن لم تكن أعمى، فاعلم أن هذه الزرقة من نفسك.

وتحدث عن نفسك بالسوء، ولا تذكر به أحداً سواك.

فكيف كان الغيب يظهر عاريا أمام المؤمن لو لم يكن ينظر بنور الله؟

وما دمت أنت تنظر بنار الله فإنك لم تميز الخير من الشر.

فانثر الماء على النار رويداً رويداً يا أبا الحزن حتى تغدو نارك نوراً!

إن ماء البحر كله رهن أمرك. والماء والنار يا إلهي مما تملك.

فإن ترد تصبح النار ماء زلالا، وإن لم ترد، فإن الماء أيضاً يصبح ناراً. وهذا الطموح فينا إنما من إيجادك، والخلاص من الظلم يا رب من عطائك.

لقد وهبتنا هذا الطموح بدون طلب منا، وأنعمت علينا بهبات لا تُعد ولا تُحد.

كيف حمل الأرنب البشرى إلى الوحوش أن الأسد قد سقط في البئر

ولما سعد الأرنب بالخلاص، أخذ يعدو نحو الوحوش حتى أدرك الفلاة.

فهو حين رأى الأسد في البئر قتيلاً تعساً، مضى يرقص طرباً حتى بلغ المرج.

لقد كان يصفق بيديه لنجاته من الموت، وكان جذلاً يتمايل في الهواء كالغصون والأوراق.

لقد اندفع صياد الأسد هذا نحو الوحوش قائلاً: أبشروا يا قوم إذ جاء البشير.

بشراكم بشراكم، يا أهل المرح والسرور! إن كلب الجحيم قد عاد إلى الجحيم.

إن الذي حطم بمخالبه الكثير من الرؤوس، قد أكتسحته مكنسة الموت، كما تكتسح القذارة.

لقد اجتمعت جملة الوحوش في ذلك الوقت، سعيدة ضاحكة، سكرى، جياشة بالطرب. والتفت حول الأرنب،

فكان وسطها كالشمعة، وسجدت له كل هذه الوحوش الصحراوية.

وقالت: أأنت ملك سماوي أم جني؟لا، بل أنت عزرائيل الأسود الضارية.

وأيا ما تكون، فإن أرواحنا فداء لك. لقد انتصرت، سلمت يدك وساعدك.

إن الحق قد أجرى هذا الماء في نهرك، فبارك الله يدك وساعدك!

ألا فلتحدثنا: كيف دبرت حيلتك؟ وكيف سحقت ذلك الشرير بمكرك؟ حدثنا، فلعل قصتك تصير علاجاً لنا! وتكلم، فلعلها تصبح بلسمًا لأرواحنا!

فقال الأرنب: لقد كان هذا بتأييد الله، أيها الكبراء! وإلا فما شأن أرنب في هذه الدنيا؟

لقد وهبني القوة، وأنار قلبي، ونور القلب قد أمد بالقوة يدي وقدمي. وما يجيء الفضل إلا من عند الله، كما أن تبديل الأحوال يأتي من الله. والحق يظهر هذا التأييد ـ في أدوار مختلفة ـ لأهل الظن وأهل العيان.

فتنبه ، ولا تفرح بملك وقتي، ولا تدع الحرية، يا من أنت أسير الزمن المؤقت. فكل من نسبح ملكه مما هو أعلى من الزمن المؤقت، قرعت له الطبول فوق الكواكب السبع.

إن الملوك الباقين لفوق الزمن المؤقت، فأرواحهم على الدوام ـ تدور حول الساقي.

أيها الكبراء! لقد قتلنا عدونا الظاهر، وبقي عدو أمر منه في باطننا!

وقتل هذا العدو الباطني ليس من عمل العقل والحكمة، فالأرنب لا يقوى على تسخير أسد الباطن.

إن هذه النفس جهنم، وجهنم تنين لا تنقص من قوته البحار.

إن جحيمها ليشرب في التو سبعة أبحر، بدون أن ينقص ذلك من ضراوته التي تحرق الخلق! والأحجار، والكفرة ذوو القلوب المتحجرة، يدخلونها أذلاء خجلين.

ولما كانت نفوسنا هذه أجزاء من جهنم، فإن لهذه الأجزاء طبع الكل.

فما دمت قد رجعت من الحرب الظاهرة، فإني قد توجهت الآن إلى حرب الباطن.

لقد عدنا من الجهاد الأصغر، وها نحن أولاء مع الرسول في الجهاد الأكبر. واعلم أن من اليسير على الأسد الشجاع أن يمزق الصفوف، لكن الأسد الحق هو ذلك الذي يتغلب على نفسه.

هذه الحكايات الرمزية التي تهدف إلى تجسيد الأفكار، ومعالجة بعض الأمور الخطيرة، والحوادث المعينة التي تجري

على مسرح العالم الاسلامي عن طريق الرموز والإشارات والكنايات. اتصف بها وبتدبيجها أغلب الفلاسفة والعلماء من جماعة أهل الحق الذين أعتمدوا الحكايات والنوادر التي تزخر بالفضائل الإنسانية، وتعبر عن نزعة الخير والمثالية، بالإضافة إلى المواعظ والحكم بقصد التنبيه والإرشاد والموعظة.

ولم تغفل جماعة أهل الحق ومن لف لفهم ونهج نهجهم من العلماء والحكماء في حكاياتهم الرمزية عن معالجة بعض الآراء، والعقائد، والفلسفة، فعبروا بواسطة الاشارة والرمز عما يتفاعل في عقولهم من أفكار عقائدية، وأجتماعية، وأخلاقية، وسياسية.

وليس بغريب أو عجيب أن يعمد جلال الدين الرومي وهو الحكيم الكبير والشاعر العظيم إلى معالجة الأمور والأفكار التي تهمه عن طريق الحكايات الرمزية الهادفة على لسان الحيوانات فيجسد كل ما يحمله من أفكار تهدف إلى إصلاح المجتمع، وإرشاد الناس إلى الخير، والإبتعاد عن الشر، والتسرمد في الدنيا والآخرة.

وفي هذه الحكاية التي أوردها جماعة أخوان الصفاء وخلان الوفاء في رسائلهم عبرة وعظة لمن يعشق شهوات

الدنيا، ويغوص في أتون ملاذها، قالوا: «.. يوشك أن يأتيك ما أصاب رجلاً إجتاز في طريق كان يسلكه في نهر جرار ينحدر من جبال وعليه يعبر الناس، وانه لما صار على ظهر الجسر، وقف ينظر إلى جريان الماء، فبينا هو كذلك، إذ نظر إلى سمكة كبيرة من أحسن أجناس السمك، فقال في نفسه: ما أنصرف في يومي هذا الى بيتي بأحسن من هذه السمكة، فأشويها وأجمع عليها أهلي وأولادي، وآكل منها أكلة طيبة. ولكن أخشى من جريان الماء أن يحول بيني وبين السمكة. ثم قويت شهوته ورام مقام السمكة بحيث يراها، وقويت طبيعته في أخذها، فنزع ثيابه ورمى بنفسه وغاص وراءها إلى أن قبض على السمكة بإحدى يديه، وفرح بظفره بها، واشتغل عن السباحة مخافة أنْ تفلت السمكة منه، فغلبه الماء لشدة جريانه فزحزحه عن الموضع الذي نزل منه، وأشرف على الهلكة. وشح على السمكة أن يفلتها وينجو بنفسه، فلم يزل ذلك حاله، وهو يروم الخلاص بنفسه مع السمكة، حتى حدره الماء إلى جرف عظيم ينصب إلى وهدة تحت الأرض فغاص به، فأتاه عامر النهر، وكان يسكن ذلك

---

(١) رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء جـ٣ ص ١٥٦.

الموضع، فقال: ما تفعل في هذا المكان الذي لا يقع فيه أحد إلا غرق وهلك؟

فقال : أنا الذي تركت الطريق الواضح والمحجة اللائحة التي فيها النجاة والسلامة ووقعت في هذه المهلكة من أجل لذة يسيرة وشهوة حقيرة.

فقال له: هلا خليت ما في يدك ونجوت بنفسك؟!

فقال؛ الطمع مني في السلامة، والفوز بما كنت حدثت به نفسي.

فقال إنك جاهل، وما أرى أحداً أولى منك بالغرق! فوضع يده على رأسه فغرقه.

فإذا تفكرت يا أخي في هذه الأمثال والإشارات، وقرأت على اخواننا، أيدهم الله، كان ذلك ذكرى لك ولقومك، ونعوذ بالله أن تكون ممن تنطبق عليه هذه القصة، ولا أحد من إخواننا، ولكن اتباعاً لقول الله تعالى حيث يقول لرسوله: «فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» .

وفي حكاية أخرى يتحدث إخوان الصفاء وخلان الوفاء تشبيها ورمزاً عن النفس والجسد ووجودهما في دار الدنيا العامرة بالشهوات الطيبات، فقالوا؛ «ذكر فيما يروى من

---

(١) رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء جـ٣ ص ١٥٩.

الأمثال» أنه كان ببلاد الهند رجلان: أعمى ومقعد، اصطحبا في طريق فعبرا بستاناً، فمالا إليه، فرآهما صاحب البستان، وشاهد فقرهما ومسكنتهما، فرحمهما وقال لهما: ما تقولان في أن ادخلكما بستاني هذا، فتأويان إليه، وتتناولان منه بحسب الحاجة ما يكفيكما مما آتيكما، فلا تولعا بالثمار فتفسداها.

فقالا: وكيف نؤذيك في بستانك، ونحن على ما ترى من الزمانة وسوء الحال، أحدنا أعمى والآخر مقعد. وأي حيلة لنا في تناول شيء من الثمار وهي على رؤوس الأشجار؟

فقال صاحب البستان لهما: ادخلا ذلك المكان، وتبوآ مكانا منه. وأوصى بهما الناطور الموكل بالبستان، وقال له: احفظهما وأحسن إليهما وأتهما من ثمرة هذا البستان ما يكون فيه صلاح شأنهما. فقال: سمعاً وطاعة.

ومضى صاحب البستان لشأنه، وأقاما على ذلك مدة، والناطور يتعهدهما بما فيه كفاية لهما. وأينعت الثمار، وكثرت وحسنت، فقال المقعد يوماً للأعمى: ويحك إنك صحيح الرجلين، وإن في هذه الأشجار التي في هذا البستان أنواعاً من الثمرات وأجناساً من الطيبات، وهذا الناطور لا يحمل إلينا من هذا الجيد شيئاً، فما الحيلة في تناول ذلك؟

فقال الأعمى؛ قد شوقتني إلى ما ذكرت، وإنك ترى وتعاين من هذه الطيبات وأصناف الثمرات فما الحيلة في ذلك؟

فلم يزالا يفكران ويعملان الروية إلى أن قال المقعد للأعمى: ويحك، أنا صحيح العين أرى ما غاب عنك، فاحملني على كتفك لأطوف بك في البستان، فكلما رأيت ثمرة مليحة طيبة، قلت لك: قدمني يمنة ويسرة وتطاول وتقاصر، فأقطفها لك فآكل منها وأطعمك، وما اعتذر وصول يدي إليه، أضربه بعصاك إلى ان يقع، فتشيله بيدك أنت، وليكن ذلك إذا غفل الناطور.

فقال الأعمى: نعم ما رأيت، وأنا أفعل ذلك غداً.

فلما كان الغد، ذهب الناطور في حوائجه، وأغلق باب البستان فركب المقعد عنق الأعمى، وطاف به البستان، فأفسدا فيه ذلك اليوم ما قدرا عليه، ووصل المقعد عليه، ثم رجعا إلى موضعهما ورقدا. فلما جاء الناطور لم يخف عليه ما حدث في البستان من فساد الثمار، وما كان غير عليه منها في أشجار معلومة أراد قطافها ليهديها إلى بعض رؤساء الناحية فلم يجده على الشجرة. فجاء إليهما وسألهما: هل دخل ذلك البستان أحد في غيبتي؟

فقالا له: ما ندري. فقال الأعمى: ترى حالي أني لا أبصر. وقال المقعد: وأنا كنت نائماً.

فصدقهما الناطور. فلما كان الغد خرج الناطور على الرسم، فقاما وفعلا أقبح من فعلهما الأول. وعاد الناطور ورأى الفساد قد تضاعف عما كان بالأمس، فخاف الملامة من صاحب البستان، وأنه يقول: لعلك تبيع ثماري أو لست تحفظها. فقال: كيف أعمل حتى أعلم من الذي يصيب هذا البستان، ومن يفعل ذلك في البستان؟

فبهتا... فقال الناطور: إني نظرت إليكما وقد قمت أيها المقعد في كتف عنق الأعمى، ومشى بك تحت الشجرة، فما وصلت إليه أخذته بيدك، وما لم تصل إليه ضربته بعصاك.

فلما سمعا منه ذلك تحقق كلاهما أنه قد رآهما، فقالا له: قد فعلنا ذلك، فلا تخبر به صاحب البستان، فإنا نتوب على يديك، ولا نعاود.

فقبل منهما، وأقبل الناطور يعظهما، وقال: أنا آتيكما بكل ما تريدان من الثمار والفواكه من حيث لا أضر ببستان صاحبي ولا أضر به، ولا أرتكب ما نهى عنه لئلا تأكلا إلّا من حلة.

فقالا: سمعاً وطاعة! وتركاه حتى غاب الناطور، وعاد إلى ما كانا عليه، بل أقبح. فرجع الناطور ورأى أثر فسادهما، فأعاد عليهما النصيحة ووعظهما وخوفهما بالله تعالى، فلم يقبلا وارتكبا ما نهاهما عنه. فاتفق دخول صاحب

البستان إليه ذلك اليوم، فلم يجد الناطور بداً من إعلامه بما كان من أمر الأعمى والمقعد. فقال صاحب البستان: قد كنت أقدر أن يركب المقعد ظهر الأعمى، ويطوف به في البستان، فيفسدا عليّ المعيشة.

فقال الناطور: هكذا عملا، وقد نهيتهما فما انتهيا.

فقال صاحب البستان: إنهما قد استحقا العقوبة بما فعلا من قبيح ما ارتكباه. ثم أمر عبيده وأعوانه أن يعاقبوا المقعد والأعمى أشد العقوبة، وأن يخرجوهما من البستان إلى برية لا يجدان فيها معتصماً ولا ملجأ، حتى يأكلهما الوحش ويهلكهما الجوع والعطش. ففعل بهما ذلك وأخرجا من البستان ورمي بهما في البرية كما فعل بآدم وحواء، عليهما السلام، لما ذاقا الشجرة.

تفسيره: فاعلم، أيها الأخ، أنه إذا ضربت حكماء الهند هذا المثل، فما ذلك إلاّ لأنهم شبهوا النفس بالمقعد، وذلك لأنها لا تبطش إلاّ بالآلة الجسدانية، وبهذه الآلة تتمكن من الطاعة والمعصية. وشبهوا الجسد بالأعمى، وذلك أنه ينقاد حيث ما تقوده النفس، ويأتمر لما تأمره به. وشبهوا البستان بدار الدنيا، والثمار بطيبات الدنيا من الشهوات، وصاحب البستان هو الله تعالى. وشبهوا الناطور بالعقل الذي هو يدل على المنافع، ويأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الفحشاء والمنكر والعدوان، وهو ينصح النفس

ويدلها على ما يكون لها به من الصلاح والسلامة في الدين والدنيا جميعاً، وأخذ الأشياء من حيث يجب. فإذا لم تقبل النفس منه وعدلت إلى الشهوات الجسمانية والمحاسن الطبيعية والملاذ الجرمانية التي يكون بها صلاح الجسم وحسن حاله في الدنيا، فبذلك تكون إماتتها وخسران آخرتها، وتحيط بها سيئات ما عملت في البستان، وقبائح ما اكتسبته في الدنيا، وتكون من تناول الشهوات غافلة عن مصلحتها، متردية في ضلالتها، حتى تأتيها ملائكة الله الغلاظ الشداد وزبانيته وجنوده، وتخرجها من دار الدنيا بالكره والإجبار، فعند ذلك تندم على ما عملت من سوء، ومن قبائح ما اكتسبته من سوء آدابها، وقد خسرت الدنيا والآخرة. . . ».

ويبدو واضحاً في معظم مصنفات أهل الحق أنهم حشدوها بالكثير من المواعظ والحكم والحكايات الرمزية، التي يهدفون من وراءها إلى تجسيد أفكارهم، لتقبلها الجماهير وتستوعبها، لذلك نراهم تارة يعمدون إلى الرموز والأمثال والكنايات، وأخرى إلى الموعظة والنصيحة والحكمة. وايراد التشبيهات التي تقرب أهدافهم التي يبشرون فيها إلى الأذهان.

ولنستمع إلى حكاية أخرى من حكايات جلال الدين الرومي التي يروي فيها قصة رمزية تهدف إلى تبيان مدى

الإخلاص والوفاء بالعهد، وتأثير النميمة على العلاقات بين الناس لأن الكلمة التي تنطلق من اللسان فجأة كأنها السهم الذي ينطلق من القوس:

قصة التاجر الذي حمّله الببغاء رسالة إلى ببغاوات الهند، حينما ذهب للتجارة[1]

كان هناك، تاجر، وكان للتاجر ببغاء. ببغاء جميل محبوس في قفص.

وحينما استعد التاجر للسفر، وكاد يبدأ الرحلة إلى بلاد الهند،

توجه بكرمه إلى كل غلام، وكل جارية، قائلاً: ماذا أحضر لك؟ عجل باخباري.

فكل منهم سأله حاجة، فوعد هذا الرجل الطيب بإجابتهم جميعاً.

ثم قال للببغاء: أي هدية تريد، حتى أحضرها لك من بلاد الهند؟

فقال الببغاء: إن هناك ببغاوات، فإذا رأيتهم فخبرهم عن حالي!

قائلاً: إن فلانا الببغاء ـ وهو المشتاق إليكم ـ حبيس عندي بقضاء السماء.

إنه يهديكم السلام، ويسألكم العدل، ويلتمس منكم

---

(١) من حكايات المثنوي للكفافي ص ٣٠٥.

أن تعلموه الوسيلة، والسبيل إلى الرشاد!

ويقول: أيليق أن أسلم الروح شوقاً إليكم، وأموت هنا مفترقـاً عنكم؟

وهل يجوز أن أكون أسير القيد الثقيل، وأنتم حيناً فوق المروج، وحيناً على الأشجار؟

وهل يكون هكذا وفاء الأصدقاء؟ أنا في هذا الحبس، وأنتم في حديقة الورد؟

ألا فلتذكروا ـ أيها الكرام ـ ذلك الطائر الذليل، بصبوح بين المروج!

فما أسعد الخليل إذا ذكره خلّانه، وبخاصة إذا ربطهم حب ليلى والمجنون!

فيا من تنادمون ملاحكم الحسان. هاأنذا أشرب أقداحاً قد حفلت بدمي!

ألا فلتشربوا قدحاً من الخمر على ذكـري، إن كنتم تريدون أن تؤدوا حقي.

عجباً أين هذا العهد، وذلك الميثاق؟ أين تلك الوعود التي فاهت بها شفاه حلوة كالسكر؟

وحين وصل التاجر إلى أقصى بلاد الهند، رأى عدداً من الببغاوات في البرية.

فأوقف مركبه، وأبلغها هذا السلام، وتلك الأمانة.

فارتعد بعنف واحد من هذه الببغاوات، وسقط ومات،

وانقطعت أنفاسه!

فندم التاجر على الإدلاء بهذا الخبر، وقال: لقد سعيت لهلاك ذي روح.

لعل هذا الطائر قريب لببغائي الصغير، أو لعلهما جسدان، وروح واحد.

فلماذا فعلت هذا؟ لماذا أبلغت هذه الرسالة؟ لقد أحرقت هذا المسكين بكلامي الفج!

إن هذا اللسان كالحجر وهو أيضاً كالحديد، وكل ما تناثر من اللسان مثل النار!

فلا تضرب الحجر بالحديد جزافاً، حيناً لتنقل خبراً، وحيناً لتتشدق فخراً.

فالظلام مخيم، وحولك من كل جانب حقول القطن، فكيف يكون الشرر بين القطن؟

فما أظلم هؤلاء الذين يغلقون عيونهم، وبكلامهم يخربون عالماً بأسره!

ولقد أتم التاجر تجارته، وعاد إلى منزله سعيداً قرير العين.

وأحضر لكل غلام هدية، كما أعطى كل جارية نصيباً.

فقال الببغاء: وأين هديتي؟ ألا فلتحدثني بما قلته، وما رأيته!

فقال التاجر: لست فاعلاً، فإني على ذلك نادم! إني

أقلب كفي، وأعض بناني!

فلماذا حملت هذه الرسالة الفجة جزافاً؟ إن ذلك لجهلي وحماقتي!.

فقال الببغاء: أيها السيد! على أي شيء أنت نادم؟ وأي شيء يقتضي هذا الغضب الشديد والحزن؟

فقال التاجر: لقد نقلت شكاياتك لجماعة من الببغاوات، شبيهة بك، فأحس الببغاء بألمك، فانشقت مرارته، وارتعد ومات!

فأصبحت نادماً. وما الذي كان يقتضي هذا القول؟ ولكن ما دمت قد قلته، فما فائدة الندم؟

فاعلم أن الكلمة التي قفزت فجاءة من اللسان، شبيهة بالسهم الذي انطلق من القوس.

فهذا السهم لن يعود من طريقه، يا بني! إن إيقاف السيل يجب أن يكون عند منبعه.

فإذا انطلق من منبعه، أغرق الدنيا. فلو أنه خرب العالم، فما في ذلك عجب.

حينما استمع هذا الببغاء إلى ما فعله ببغاء الهند، عرته هزة شديدة، وسقط ومات، وأصبح بارد الجسم.

فلما رآه الببغاء التاجر طريحاً على هذا النحو، قفز ورمى قلنسوته على الأرض.

وحينما رأى الببغاء الجميل بهذا اللون، وعلى تلك

الحال، هب واقفا، وشق جيبه.

وقال: أيها الببغاء الجميل ذو الصوت الرخيم! ماذا أصابك؟ ولماذا أصبحت على تلك الحال؟

فوا أسفاه عليك يا طائري الحلو الغناء! وأسفاه عليك يا صفيي، وموضع سري!

وأسفاه عليك يا طائري العذب الألحان! يا راح روحي، وروضي وريحاني!

فلو كان لسليمان طائر مثل هذا، متى كان يشغل بغيره من الطيور!

أيها اللسان! إنك لي مصدر ضر كثير، ولكن ما دمت أنت الناطق، فماذا أقول لك؟

وبعد ذلك ألقى به خارج القفص، فطار الببغاء إلى دوحة عالية.

وهكذا طار هذا الببغاء الميت بسرعة كاندفاع الشمس المشرق.

فحار التاجر في أمر هذا الطائر، وأدرك - من دون خبر - أسراره.

ورفع وجهه إلى أعلى، وقال: أيها العندليب! أعطنا نصيباً من بيان حالك!

ماذا صنعه الببغاء في الهند، فتعلمته، ومكرت مكراً، فأشعلتنا حزناً؟

فقال الببغاء؛ إنه نصحني بفعله قائلاً: دع جمال صوتك، ولطيف ودك!

فإن صوتك هو الذي وضعك في الأسر! وقد تظاهر بالموت ليقدم لي هذه النصيحة.

ومعناها: يا من أصبحت مطربا للعوام والخواص. لتصبح ميتاً حتى تظفر بالخلاص!

فحين تكون حبة تلتقطك صغار الطير. وحين تكون برعمة تقطفك الأطفال.

فكل من عرض حسنه في المزاد ، يتجه نحوه مائة قضاء سيء.

فالحيل والأحقاد وضروب الحسد تنصب على رأسه كالماء من القرب!

فأعداؤه يمزقونه غيرة منه، وأصدقاؤه ينهبون أيام حياته!

ومن كان غافلاً عن الزرع والربيع، أنى له أن يدرك قيمة الزمن!

وأعطاه الببغاء نصيحة أو نصيحتين ، حافلتين بالمغزى، وبعد ذلك قرأ عليه سلام الفراق.

فقال له التاجر: أمضي في أمان الله! لقد أوضحت لي الآن طريقاً فإنه طريق واضح.

وكيف تكون روحي أقل حكمة من الببغاء؟ إن الواجب على الروح لإن تسلك سبيل الرشاد.

مضرة اشتهار المرء وتعظيم الخلق له

إن الجسم على شكل القفص، وقد أصبح بخداع الداخلين والخارجين شوكة تخز الروح.

فهذا يقول له؛ إنني سأكون صفيك. وذاك يقول له: لا، بل أنا شريكك.

وهذا يقول له: ليس لك نظير في الوجود، سواء في الجمال أو الفضل أو الإحسان أو الجود!

وهذا يقول له: إنك صاحب العالمين، وكل أرواحنا عيال على روحك!

فحين يرى الخلق سكارى ذاته، يفقد من الكبر سلطانه على نفسه.

وهو لا يدري ان الشيطان قد أوقع آلافاً مثله في ماء النهر.

إن ملق الدنيا ونفاقها لقمة سائغه المذاق، ولكنها مليئة بالنار، فأقلل من تناولها.

ونارها مختفية، ولكن مذاقها واضح ودخانها يصبح ظاهراً في نهاية الأمر.

ولا تقل: متى كنت أبتلع هذا المديح؟ إنه يتحدث عن طمع وأنا واقف على أمره.

فلو أن مادحك هجاك أمام الملأ، فإن قلبك يحترق أياماً بلهيب هذا الهجاء.

ومع أنك تدري أنه قال هذا لحرمانه، وأن طمعه فيك قد أصبح تحيزاً ضدك، وإساءة إليك.

فإن هذا يبقى في نفسك! وإنك لتلقى التجربة ذاتها في المديح.

فأثر ذلك أيضاً يبقى معك أياما، ويصبح مصدراً لتكبر الروح وانخداعها.

لكن المدح لا يظهر لك، لأنه حلو، أما القدح فيظهر لك قبيحاً، لأنه مر.

فمن كثرة المديح، أصبح فرعون طاغياً، فكن سمح النفس، لين الجانب، ولا تتجبر.

وإلا فإنه حين لا يبقى لك لطف، ولا جمال ـ يقع منك

الملال في نفوس خلانك.

فهذه الجماعة التي كانت تتملقك، تقول لك، حين رؤيتك: إنك الشيطان.

والجميع يقولون لك، عندما يرونك بالباب: هذا ميت قد نهض من قبره!

لقد كانت الضراعة معنى الموت، عند الببغاء فاجعل نفسك ميتاً بالضراعة والفقر.

حتى يبعثك من الموت نفس عيسى، ويجعلك مثله مباركاً سعيداً.

فمتى يكتسي بخضرة من الربيع حجر صلد؟ ألا فلتكن ترابا حتى تنبت الورد مختلف الألوان.

لقد ظللت السنين الطوال حجرا يجرح القلب فجرب لحظة واحدة ان تكون تراباً!

* * *

قصة الأعرابي وزوجته (١)

لقد خاطبت أعرابية زوجها ذات ليلة وخرجت بالقول عن حدوده.

فقالت: إننا نعاني كل هذا الفقر والشقاء، فجملة العالم سعداء، وأما نحن فأشقياء.

وليس خبزنا خبزاً فطعامنا الألم والحسد. وليس لنا كوز، فماؤنا دمع أعيننا.

ورداؤنا بالنهار حرارة الشمس، وأما وسادنا ولحافنا في الليل فمن نور القمر.

نظن قرص القمر رغيفاً، فنرفع أيدينا إلى السماء.

(١) جلال الدين الرومي للكفافي ص ٣٢٣.

إن مسكنتنا عار للدراويش، وما نهارنا وليلنا إلا تفكر في الرزق.

وقـد أصبح الأقـرباء والغـرباء يفـرون منا، كـما فر السامري من الناس.

فلو طلبت من إنسان قبضة من العدس لقال: اسكتي جاءك الطاعون والموت.

إن للعرب فخراً بالغزو والعطاء، وأنت بين العرب مثل الخطأ في الكتابة.

وأي غزو بوسعنا، وقد قتلنا بدون غزو، لقد أذهلت رؤوسنا ضربة سيف العدم.

وأي عطاء نقدمه، ونحن في سؤال دائم، نضرب عرق الذبابة في الهواء لنشرب دمها.

فلو نزل بي ضيف، وطاوعت نفسي، لعمدت الى سلب دلقه حين ينام.

كيف أمر الأعرابي إمرأته بالصبر[1]

فقال لها الزوج: إلى متى تنشدين الدخل والحصاد؟ م الذي بقي من عمرك؟ إن أكثره قد مضى.

---

(١) جلال الدين الرومي للكفافي ص ٣٢٥.

إن العاقل لا ينظر الى الزيادة، ولا إلى النقصان، لأن كليهما يمر كما يمر السيل المندفع.

فسواء أكان السيل صافياً أم كان معتكر الوجه، فلا تتحدثي عنه لحظة واحدة، لأنه لا يدوم.

ففي هذا العالم آلاف من الأحياء يحيون حياة طيبة لا هبوط فيها ولا صعود.

فالفاختة تترنم بشكر الله على الشجرة على حين أن قوت المساء غير مهيأ لها.

والعندليب يحمد الله قائلاً؛ أي مجيب السائلين إن إعتمادنا في الرزق عليك.

والباز قد جعل يد الملك أمله وبشراه، وقطع رجاءه من كل الرمم.

وهكذا لو أخذت الأحياء ، من البعوضة الى الفيل، فأنهم جميعاً عيال الله، والحق نعم المعيل.

لقد كنت شابة، وكنت أكثر قناعة! وقد أصبحت طالبة للذهب وكنت ـ من قبل ذهباً! لقد كنت كرمة عامرة بالثمار فكيف أصبحت كاسدة؟ وكيف غدوت فاسدة وقت نضوج الثمار؟

إنك زوجتي، والزوجة لا بد لها ان تتفق مع الزوج في الصفاء، حتى تجيء الأمور وفق مصلحتها.

فالزوجان يجب أن يكون كل منهما على مثال الآخر. ألا

فلتتأملي زوجين من ألأحذية أو النعال!

فلو أن واحدا من النعلين ضاق بقدمك، فلا نفع لهذين النعلين عندك.

وهل بين مصراعي الباب واحدا صغير وآخر كبير؟ أم هل رأيت ذئبة إقترنت بأسد الغاب؟

وليس يستقيم فوق ظهر الجمل حقيبتان، إحداهما صغيرة، والأخرى صافية الحجم.

إنني أسير بقلب قوي نحو القناعة، فلماذا تذهبين أنت نحو الشناعة؟

فهذا الرجل القانع، ضلَّ لموفور إخلاصه وتحمسه يحدث إمرأته على هذا المنوال، حتى الصباح.

جواب المرأة

فصاحت المرأة بزوجها: أيها المغتر بمذهبه! إنني لن أبتلع خداعك، أكثر من ذلك.

لا تحدثني بترهات من إدعائك ودعواك! إذهب ولا تخاطبني بكبر وغرور!

إلى متى تتحدث حديث الخيلاء والتصنع؟ انظر إلى أمرك وحالك، وكن ذا حياء!

إن الكبر قبيح، ولكنه من الشحاذين أقبح، فكبرالشحاذين كالثوب المبلل، في يوم بارد مثلج.

إلى متى هذا الإدعاء والغرور والخيلاء، يا من بيتك مثل بيت العنكبوت.

متى أنرت بالقناعة روحك، وأنت لم تعرف من القناعة سوى اسمها.

لقد قال الرسول: ما القناعة؟ إنها كنز. وأنت لا تعرف الغنم من الغرم.

فما القناعة إلا كنز الروح. فلا تفاخر بها يا من أنت غم وألم لروحي!

وكيف تسير مع الأمير ومع السيد وأنت تضرب عرق الجرادة في الهواء؟

إنك في صراع مع الكلاب على العظام. بل إنك لفي نواح مثل قصبة خالية الجوف.

فلا تنظر إلَّي باحتقار وازدراء حتى لا أخبرك بما في عروقك.

لقد رأيت عقلك أكبر من عقلي فكيف رأيتني أنا الصغيرة العقل.

فلا تتوثب علي مثل ذئب أحمق، يا من يفوق انعدام العقل عار عقله.

فإن كان عقلك عقالاً للناس، فما هو بعقل بل ثعبان أو عقرب.

فليكن الله خصمًا لظلمك ومكرك، ولينقشع عنا مكر عقلك.

إنك انت الثعبان وأنت الساحر، فواعجبا، إنك ماسك الحية، وأنت الحية، يا عار العرب!

ولو عرف الغراب قبح ذاته لذاب كالثلج من الألم والحزن.

وهكذا أسمعت هذه المرأة زوجها الشاب صحائف من خشن القول.

كيف نصح الرجل امرأته قائلاً: لا تنظري الى الفقراء باحتقار

فقال الأعرابي: أيتها المرأة! أأنت امرأة أم أنت أم الأحزان! إن الفقر فخري، فلا تضربيني فوق رأسي.

إن المال والذهب هما للرأس كالقلنسوة، وليس يلتجىء الى القلنسوة إلا الأصلع.

وأما من كان ذا شعر جعد كثيف، فهو أسعد حالاً بذهاب قلنسوته.

إن رجل الحق مثل العين، ولهذا فإن انكشاف بصره خير من احتجابه.

إن أمر الزهد يتجاوز مقدار فهمك، فلا تنظري الى الزهد باحتقار واستهانة.

ذلك لأن الدراويش فوق الملك والمال، ولهم رزق

عظيم من لدن رب الجلال.

فهل قولي الفقر فخري من الجزاف والمجاز؟ لا بل إنه آلاف من العز الخفي والاعتزاز!

اختبري الفقر يوما أو يومين، لتري في الفقر غنى مضاعفاً!

إصبري على الفقر، ودعي هذا الملال، فإن في الفقر نوراً من ذي الجلال.

لا تنظري بمرارة وشاهدي آلاف الأنفس، وقد أغرقتها القناعة في بحر من العسل.

تأملي آلاف الأنفس التي تقاسي مرارة الحياة، وقد إمتزجت كالورد بشراب الورد.

فوا أسفاه أنك لست واسعة الفهم حتى أبين لك بروحي مكنون قلبي.

فهذا الحديث لبن في ثدي الروح، وهو لا يسيل طيبا، بدون رضيع.

ولكن حين يصبح المستمع متعطشاً طالبا فإن الواعظ ينطق حتى ولو كان ميتاً!

فالمستمع لو أصغى بنشاط وشغف لاصبح الأصم الأبكم ناطقا بمائة لسان.

وكل ما صنع جميلاً رائعاً منمقاً فإنما صنع من أجل العين المبصرة.

ومتى كانت الألحان بوزنها الخفيض والعالي من أجل أذن صماء معدومة الحس.

إن الله لم يجعل المسك طيب الأنفاس عبثاً. إنه قد خلقه للإحساس السليم، وليس من أجل الأخشم.

فلو أنني ملأت العالم بدر الحكمة المكنون ولم يكن هذا الدر من نصيبك، فماذا أصنع؟

أيتها المرأة! دعي العراك، واتركي قطع الطريق! وان لم تري هذا الرأي فاتركيني.

فإما أن تسكتي وإلا سكت أنا، وتركت في هذه اللحظة منزلي وداري.

مراعاة المرأة زوجها واستغفارها إياه مما قالته

فلما رأت المرأة زوجها محتداً ثائراً، أخذت تبكي، والبكاء حيلة النساء.

وقالت: ما توهمت ذلك منك، لقد كان لي فيك أمل آخر.

وجاءته المرأة من طريق إنكار ذاتها، فقالت: إني أنا ترابك، لا سيدتك.

إن جسمي وروحي وكل كياني لك، والحكم والأمر كلاهما رهن إرادتك.

فإن كانت الفاقة قد جعلت قلبي يتخلى عن الصبر، فما

ذلك من أجل نفسي، ولكن من أجلك.

لقد كنت الدواء لآلامي، ولهذا لا أريد أن تكون عديم الرزق.

فبروحي وسري، إن هذا لم يكن من أجل نفسي، بل إن هذا النواح والحنين كان من أجلك.

إن ذاتي ـ والله ـ إنما هي من أجل ذاتك، تتمنى في كل لحظة ان تموت قبلك.

وإني لأحثو التراب على الفضة والذهب، حينما تكون هكذا غاضبا، يا سكن روحي! فهل تتبرأ مني إلى هذا الحد، يا من جعلت مكانك روحي وقلبي؟

تذكر أيام كنت جميلة كالصنم، وكنت أنت كعابد الصنم!

لقد نطقت بالكفر أنذا قد رجعت إلى الإيمان، وقد أقبلت بكل روحي مستسلمة لحكمك.

إنني لم أعرف طبعك الملكي، فانطلقت بجوادي متوقحة أمامك.

أما وقد جعلت لي من عفوك سراجا فقد تبت وخليت العناد.

إني أضع أمامك السيف والكفن، وأبسط لك عنقي فلتضربه.

لقد ذكرت كلاماً عن الفراق المر، فافعل أي شيء

تريد سوى هذا.

وإن فيك لملتمساً لي العذر هو ضميرك، وإنه في غيبتي لشفيع مستمر عندك.

وأخذت تتحدث على هذا النسق بلطف وصراحة وتملكها البكاء أثناء الحديث.

فلما جاوز البكاء والنواح حدهما عند تلك التي كانت فاتنة بدون بكاء، تجلى من تلك الأمطار برق ألقى شرارة بقلب هذا الرجل الوحيد.

فتلك التي كان الرجل عبداً لوجهها الجميل ، كيف تكون إذا بدأت تظهر خضوعها؟

تلك التي يرتعد قلبك من كبرها، كيف تصير حين تصبح باكية أمامك؟

تلك التي يدمي دلالها قلبك وروحك، كيف يكون الحال حين تأتيك ضارعة؟

تلك التي تأسرنا بشباك من جورها وجفائها، ماذا يكون عذرنا لو جاءت تلتمس العذر؟

فما دام الله قد خلق المرأة ليسكن إليها الرجل فكيف يستطيع آدم أن ينفصل عن حواء؟

فلو كان الرجل رستم بن زال، أو كان أشجع من حمزة، فإنه رهن أمر امرأته، أسيراً لها.

فالحب على هذا النحو صفة مميزة للإنسان، وأما الحب

عند الحيوان فناقص، وذلك لنقص الحيوان.

ولقد قال الرسول: إن النساء يغلبن العقلاء، وأصحاب القلوب.

أما الجهلاء فإنهم يغلبون المرأة، لأن حدة الحيوان قد احتبست فيهم.

إنهم خالون من الرقة واللطف والوداد، لأن الحيوانية غالبة على طبيعتهم.

فالمحبة والرقة هما صفة الإنسانية وأما الغضب والشهوة فهما صفة الحيوانية.

إن المرأة ليست بمعشوقة، بل هي نور الحق. فكأنما هي خالقة، أو ليست بمخلوقة!

* * *

لقد ندم الرجل على قوله، كما يندم الظالم ساعة الموت على ظلمه.

وقال: كيف أصبحت خصما لروح روحي؟ وكيف أخذت أكيل الركل لرأس روحي؟لسوف أطيع أمرك في كل ما تأمرين، ولن أنظر فيما قد ينجم عن ذلك من شر أو خير.

وسوف أصبح في وجودك عدماً، فما دمت محباً، فالحب يعمي ويصم.

كيف عينت المرأة لزوجها طريق طلب الرزق، وكيف تقبل ذلك منها

فقالت المرأة: إن شمساً واحدة قد أشرقت فاكتسب النور منها عالم بأسره.

ونائب الرحمن، خليفة الله، به ازدهرت مدينة بغداد، فكأنه الربيع.

فإذا اتصلت بهذا الملك، أصبحت ملكا! وإلا فإلى متى تسعى وراء كل إدبار؟

إن مجالسة السعداء مثل الكيمياء! بل أين هي الكيمياءالتي تشبه نظرة إقبالهم.

لقد تلقى أبو بكر نظرة من الرسول، وبالتصديق مرة واحدة أصبح صديقاً!

فقال الزوج: وكيف أصبح مقبولاً عند الملك؟ وكيف أذهب إليه من غير حجة أتذرع بها؟

فلا بد لي من ذريعة أو حيلة. وهل استقامت حرفة قط بدون آلة؟

إنني مثل المجنون الذي سمع من شخص أن ليلى قد ألم بها مرض طفيف.

فقال: أواه: كيف أذهب إليها بدون عذر أتذرع به؟ واذا تخلفت عن عيادتها، فكيف يكون حالي؟

ليتني كنت طبيباً حاذقاً كنت أمشي نحو ليلى سابقاً

ولو كان للخفاش بصر ووسيلة، لطار بالنهار، وحسن حاله.

فقالت الزوجة: إن ملك الملوك حين ينزل إلى الميدان، يصبح كل عجز آلة ووسيلة! ولدينا ماء مطر بالإبريق، وهو ملكك، ورأس مالك، ووسيلتك. فاحمل هذا الإبريق وانطلق! اتخذه هدية، وأمثل أمام ملك الملوك!

وقل له: إننا لا نمتلك من الأسباب غير هذا. وليس في الصحراء شيء قط أحسن من الماء. فمع أن خزائنه مليئة بالذهب والجوهر، فإنه لا يجد ماء كهذا، فهو نادر الوجود! فانتفشت لحية الأعرابي بريح الغرور. فمن ذا الذي لديه مثل هذه الهدية؟ إنها بحق لائقة بمثل هذا المليك!

ولم تدر الزوجة أن هناك على الطريق نهرا مثل جيحون، حلواً كالسكر. يجري كالبحر في وسط المدينة، وقد حفل بالزوارق وشباك الصيادين.

فقال الأعرابي: نعم، أغلقي فوهة الإبريق وحاذري فإن هذه الهدية ستجلب لنا الربح!

خيطي اللبد حول الإبريق حتى يفطر الملك على هديتنا.

فليس في الآفاق كلها مثل هذا الماء! وليس لماء مثل هذا الصفاء!

ثم حمل الأعرابي الإبريق وانطلق مسافراً، وأخذ يجره في جنح الليل، وأثناء النهار. لقد كان يرتعد خوفا على الإبريق من آفات الدهر، وها هوذا قد جره من الصحراء إلى المدينة. وأما المرأة فقد بسطت سجادة الصلاة ضارعة وجعلت دعاء رب سلم وردها في الصلاة. وكانت تقول: اللهم احفظ ماءنا من الأخساء، واجعل ذلك الجوهر يصل إلى ذلك البحر. فمع أن زوجي ذكي ماكر، فهناك آلاف من الأعداء يتربصون بهذا الجوهر.

بل ماذا يكون الجوهر بالقياس إليه؟ إن هذا ماء الكوثر، وقطرة واحدة منه هي أصل الجوهر! فبدعاء المرأة وضراعتها وباهتمام الرجل وتحمله العبء الثقيل، نقل الإبريق إلى دار الخلافة بدون تأخر، وقد سلم من اللصوص، ومن إيذاء الحجارة. وهناك رأى الأعرابي بلاطاً مليئا بالنعم، وقد مد أهل الحاجة فيه شباكهم.

ففي كل لحظة كان يجيء من كل ناحية صاحب حاجة، فإذا به قد وجد لدى هذا الباب الخلعة والعطاء. لقد كان للكافر وللمؤمن، وللقبيح والجميل، وكأنه الشمس والمطر، بل كأنه الفردوس! ورأى قوما ذوي أبهة

في حضرة الخليفة، وقوما آخرين وقفوا منتظرين. فالخاصة والعامة من سليمان حتى النملة، دبت فيهم الحياة كالعالم عند نفخ الصور! فأما أهل الصورة فقد رصعوا بالجواهر، وأما أهل المعنى فقد وجدوا بحر المعنى. وكم من عديم الهمة أصبح ذا همة! وكم من صاحب همة أصبح ذا نعمة!

كيف تقدم نقباء الخليفة وحجابه لإكرام الأعرابي، وتقبل هديته

وحينما وصل الأعرابي من الصحراء النائية إلى باب دار الخلافة، تقدم النقباء نحو الأعرابي، وضمخوا جيبه بفيض من ماء ورد اللطف. وأدركوا حاجته بدون مقال، فقد كان دأبهم العطاء قبل السؤال. ثم قالوا له: يا وجيه العرب! من أي مكان أتيت؟ وكيف أنت بعد الطريق والتعب؟ فقال الأعرابي: إنني وجيه لو أوليتموني وجوهكم! ولست بذي شأن لو نبذتموني وراء ظهوركم!

يا من تلوح في وجوهكم علائم العظمة! يا من رواء مجدكم أبهى من الذهب الجعفري!

يا من نظرة واحدة منكم تعدل نظرات من سواكم! يا من نثار رؤيتكم الدنانير!

يا من أصبحتم جميعاً تنظرون بنور الله! يا من أقبلتم

من عند الله بالجود والعطاء لتلقوا بنظراتكم الكيميائية على نحاس أشخاص البشر!

إنني غريب وقد قدمت من الصحراء. لقد أقبلت على أمل في لطف السلطان، من عبير لطفه قد عم الصحارى، فأتخذت منه حبات الرمال أرواحاً! لقد قدمت إلى هنا على أمل بالدينار، فلما وصلت أصبحت ثملاً بالرؤى!

لقد مضى رجل الى البستان يلتمس النزهة، فأصبحت نزهته جمال صاحب البستان! وإني قد قصدت هذا الباب ملتمساً العطاء، فلم أكد أخطو الى الدهليز حتى أصبحت صدراً! وقد جئت بالماء هدية لأنال الخبز، فحملتني رائحة الخبز إلى صدر الجنان. إن الخبز هو الذي أخرج آدم من الجنة، وها هوذا قد سما بي إلى الجنة. لقد برئت كالملك من الماء والخبز، وها أنذا مثل الفلك، أدور بلا غرض حول هذا الباب. وليس في العالم ما يدور بلا غرض، سوى أجسام العاشقين وأرواحهم.

لقد قدم الأعرابي إبريق الماء، وغرس في تلك الحضرة بذور الخدمة. وقال: احملوا إلى السلطان هذه الهديـة، وخلصوا سائل الملك من الحاجة! إن الماء حلو، والإبريق أخضر اللون جديد! الماء من المطر الذي تجمع في الحفرة! فضحك النقباء من ذلك، لكنهم تقبلوا الهدية معتزين بها

كالروح. وذلك لأن لطف الملك الطيب الحكيم كان قد أثر في كل أركان الدولة. فطبيعة الملوك تؤثر في رعاياهم! إنها كالسماء الخضراء، تجعل الأرض مخضرة يانعة. وحينما رأى الخليفة الأعرابي، واستمع إلى قصته، ملأ ذلك الإبريق بالذهب حتى فاض منه. فوهب هذا الأعرابي خلاصا من الفاقة، وأعطاه منحاً وخلعا فريدة. وقال: أسلموا هذا الإبريق إلى الأعرابي. وعندما يتجه إلى العودة خذوه إلى دجلة. فلقد جاء بطريق البر، مع أن السفر بطريق الماء يجعل غايته أدنى سبيلاً. فلما جلس الأعرابي في السفينة، وأبصر دجلة، خر ساجداً، وخفض الرأس حياء. وقال: ما أعجب لطف هذا الملك الوهاب! وأعجب منه أنه تقبل هذا الماء! فكيف تقبل بحر الجود مني - بهذا الإسراع - مثل هذا النقد الزائف! فاعلم يا بني أن العالم كله وعاء مليء بالعلم والجمال! وقطرة واحدة من دجلة حسنة، لا يكاد هذا العالم يسعها بين جوانبه. لقد كان كنزاً مخفياً لكنه لغزارته مزق حجب الخفاء وجعل الأرض أكثر إشراقاً من الأفلاك. لقد كان كنزاً مخفياً فجاش فيضه الغزير فجعل الثرى سلطانا يرتدي الأطلس.

طرف من رموز الحكاية

إن إبريق الماء، رمز لعلومنا، وأما الخليفة فهو دجلة

علم الله.

واعلم أن الزوج هو العقل، وأن الزوجة هي الحرص والطمع، وهذان مظلمان منكران اما العقل فشمع منير إن الذي جرى بين الرجل الأعرابي وامرأته، لذو مغزى يبحث عنه قلب المخلص.

لقد جاء عن طريق النقل ما جرى بينهما. فاعلم ان تلك القصة مثال لنفسك وعقلك.

فهذه المرأة وهذا الرجل نفس وعقل وقد حسن وجوبهما، لإظهار الخير من الشر.

إن هذين الواجبي الوجود في هذا العالم الترابي، يتحاربان ويتنازعان طيلة النهار والليل.

إن المرأة تريد حاجة المنزل، يعني الأبهة والخبز والخوان والجاه.

والنفس مثل المرأة تنشد التراب حيناً، وتنشد المجد حيناً آخر، سعياً إلى مآربها.

أما العقل فليس بمدرك لتلك الأفكار، ولا ينطوي دماغه إلا على خوف الله.

إنك حين تطرق باب المعنى يفتح لك، فاضرب بجناح فكرك، لتغدو ملكاً للصقور.

* * *

وللجلال الدين الرومي صلة حميمة باللغة العربية، فقد

كان على علم واسع بها، وبمختلف ما وعته من ثقافات ومعارف عقلانية، خاصة ما يتعلق بالقرآن الكريم ومعانيه، وفي معرفته بالسنة وعلم الحديث والتأويل. وترك لنا جلال الدين الرومي آثاراً شعرية والنثرية في اللغة العربية.

وتمثل شعر الرومي في أعمال متعددة، ضمت إلى ديوانه الكبير المسمى بديوان شمس تبريز، وبلغت ما يزيد قليلاً على سبعين قطعة، ما بين غزل وقصيدة، وسنقدم نماذج من شعره إخترناها من ديوان شمس تبريز:

قد أشرقت الدنيا من نور حميانا
البدر غدا الساقي والكأس ثريانا
الصبوة إيماني والخلوة بستاني
والمشجر ندماني والورد محيانا
من كان له عشق فالمجلس مثواه
من كان له عقل إياه وإيانا
من ضاق به دار أو أعطشه نار
نهديه إلى عين يسترجع ريانا
من ليس له عين يستبصر عن غيب
فليأت على شوق في خدمة مولانا

يا دهر سوى صدر شمس الحق تبريزي
هل أبصر في الدنيا إنسانك إنسانا
طوبى لك يا مهدي قد ذبت من الجهد
أعرضت عن الصورة كي تدرك معنانا
من كان له هم يفنيه ويرديه
فليشرب وليسكر من قهوة مولانا

* * *

جاء الربيع والبطر زال الشتاء والخطر
من فضل رب عنده كل الخطايا تغتفر
أوحى إليكم ربكم أنا غفرنا ذنبكم
فارضوا بما يقضى لكم إن الرضا خير السير
كم قائلين في الخفا إنا علمنا بسره
فاحك لدينا سره لا تشتغل فيما اشتهر
السر فيك يا فتى لا تلتمس ممن أتى
من ليس سر عنده لم ينتفع مما ظهر
أنظر إلى أهل الردى كم عاينوا نور الهدى
لم ترتفع أستارهم من بعد ما انشق القمر

يا ربنا رب المنن إن أنت لم ترحم فمن

منك الهدى منك الردى ما غير ذا إلا غرر

يا شوق أين العافية كي اضطفر بالقافية

عندي صفات صافية في جنبها نطقي كدر

إن كان نطقي مدرسي قد كان عشقي مخرسي

والعشق قرن غالب فينا وسلطان الظفر

سر كتيم لفظه سيف جسيم لحظه

شمس الضحى لا تختفي إلا بسحار سحر

يا ساحراً أبصارنا بالغت في إسحارنا

فارفق بنا أو دارنا إنا حضرنا في السفر

يا قوم موسى إننا في التيه تهنا مثلكم

كيف إهتديتم فأخبروا لا تكتموا عنا الخبر

إن عوقوا ترحالنا فالمن والسلوى لنا

أصلحت ربي بالنا طاب السفر طاب الحضر

إن الهوى قد غرنا من بعد ما قد سرنا

فاكشف بلطف ضرنا قال النبي لا ضرر

قالوا ندبر شأنكم نفتح لكم آذانكم

نرفع لكم أركانكم أنتم مصابيح البشر

ها كم معاريج اللقا فيها تداريـج البقا

أنعم به من مستقى أكرم به من مستقر

العيش حقاً عيشكم والموت حقا موتكم

والدين والدنيا لكم هذا جزاء من شكر

أسكت فلا تكثر أخي إن ظلت تكثر ترتخي

الحبل في ريح الهوى فاحفظه كلا لا وزر

* * *

غرة وجه سلبت قلب جميع البشر

ضاء بها إذ ظهرت باطن ليل كدر

إني وجـدت امرأة أو صفة تملكهم

أو قمراً محتجبا تحت حجاب الفكر

داخلة خـارجة شـارقـة بـارقـة

صورتها كـالبشر خلقتهـا من شرر

حين نأت تنقصني حين دنت ترقصني

كاد سنا برقتها يذهب نور البصـر

قـامتهـا عـاليـة قيمتهـا غـاليـة

غمـزتها سـاحرة ريقتهـا من سكر

هـدهدهـا من سبأ أتحفنـا من نبأ

منـذ بهـا أخبـرني غيبني كـالخبـر

قلت لروح القدس ما هي قل لي عجبا

قال أما تعرفها تلك لإحدى الكبر

* * *

أقبل الساقي علينـا حامـلاً كأس المـدام

فاشربوا من كأس خدوا تركوا كل الطعام

أشبعوا من غير أكل واسمعوا من غير أذن

وانطقوا من غير حرف واسكتوا تم الكلام

أيها العشاق طيبـوا واسكروا من كـأسنا

واركبوا ظهر المعالي وادخلوا بين الـزحام

انهضوا نادى المنادي الصلا أين الـرجال

جاءكم نادي القيامة في الهوى نعم القيام

اشربوا سقيـا لكم ثم اطربـوا غنما لكم

إن هـذا يوم عيـد عيدوا بعـد الصيـام

رافقـونـا رافقـونـا في طـريق الاتحـاد

إنـنـا نحـن كنهـر فـرقـوه والـســلام

يا نديمي سل سبيلاً نحو عين السلسبيل
قم لنا نفتح جنانا من جنان يا غلام

* * *

كتب العشق بأني بهوى العاشق أعلم
فإليه نتراجع وإليه نتحاكم
قمر الحسن أتاني وإلى الوصل دعاني
ورعاني وسقاني هو في الفضل مقدم
نصر العشق أجيبوا وإلى الوصل أنيبوا
طلع البدر فطيبوا قدم الحب وأنعم
لمع العشق توالى وعلى الصبر تعالى
طمس البدر هلالا خضع القلب وأسلم
خدعوني نهبوني أخذوني غلبوني
وعدوني كذبوني فإلى من أتظلم
ملك الشرق تشرق وعلى الروح تعلق
غسق النفس تفرق ربض الكفر تهدم
نفس العشق عتادي وعميدي وعمادي
فمن العشق تدثر ومن العشق تختم

لك يا عشق وجودي وركوعي وسجودي

لك بخلي لك جودي ولك الدهر منظم

ألف الدهر بعادي جرح البعد فؤادي

فقد النوم وسادي وسعاداتي نوم

فأرى الشمل تفرق وأرى الستر تمزق

وأرى السقف تخرق وأرى الموج تلاطم

وأرى البدر تكور وأرى النجم تكدر

وأرى البحر تسجر وأرى الهلك تفاقم

فقد أهداني ربي وأتى الجد بحبي

نهض الحب لطبي وتدارك وترحم

نزل العشق بداري معه كأس عقاري

هو معراج سواري وعلى السطح كسلم

بك أحيى وأموت بك أمسك وأفوت

بك في الدهر سكوت بك قلبي يتكلم

* * *

كيف أتوب يا أخي من سكر كأرجوان

ليس من التراب بل معصره بلا مكان

خط على كؤوسها كتابة شارحة

يأمن من يشربها من الممات والهوان

من تبريز نبعه منبته وينعه

فهي إليه جانب وجانب إلى الجنان

العشق يقول لي تزين

الزينة عندنا تيقن

لا تنظر غيرنا فتعمى

لا تله عن اليقين بالظن

لا عيش لخائف كئيب

لا تبرح عندنا فتأمن

من كنت هواه كيف يهلك

من كنت مناه كيف يحزن

العقل رسولنا إليكم

ذاك حسن ونحن أحسن

أخشوشن بالبلا وارضى

فالهجر من البلاء أخشن

من رام إلى العلا عروجا

هذا سبب إليه يركن

يـــا مــضــطــر بــاتــعــال وافــلــح
في مــســكــنــنــا ونــعــم مــســكــن

***

ألا يا صاح لا تعجل بقتلي قد دنا المقتل
ترفق ساعة واسأل وصل من باد بالهجران
عذيري منك يا مولى فإن الهم إستـولى
وأنت بالوفا أولى فلا تشمت بي الشيطان
ألا يــا متلفي زرني لتحييني وتـنشــرني
قد استوليت فانصرني فإن الفضل بالإحسان
وما ذنبي سوى أني عديم الصبر في فني
فلا تعرض بذا عني وجد بالعفو والغفران
أتينــاكم أتينـاكم فـأحيـونــا بلقيــاكم
وساقونا بسقياكم خذوا بالجود يا إخـوان
دخلت النار سكرانا حسبت النار أوطانا
ألفت النار أحيانا فمن ذا يألف النيران
خليلي قد دنــا نقلي بـلا قلب ولا عقل
فلا تعرض ولا تقل ولا ترديني بالنسيان

يقول خادع المعشر بلاء العشق كـالسكر

وشوك الحب كالعبهر فما يبكيك يا فتان

جراحات الهوى تشفي كدورات الهوى تصفي

برودات الهوى تدفي ونيران الهوى ريحان

إذا استغنيت لا تبخل تصدق في الهوى وانخل

فبئس البخل في المأكل ونعم الجود في الإنسان

ألا يـا سـاقيـا أوفـر ولا تمنن لتستكـثر

أدر كاساتنا واسكر فإن العيش للسكران

فلا تسق بكاسـات صفار بـل بطاسـاتٍ

وأمـددنا بجـرات عـظام يـا عـظيم الشـان

سقانا ربنـا كاسـاً مراعـاة وايناسـاً

فنعم الكأس مقياساً وبئس الهم كالسرحان

ألا يا ساقي السكرى أنل كاساتنا تترى

تسلي القلب بالبشرى تصفينا عن ا لشنآن

سنا برق لساقينا بكـاسات تـلاقينا

تضيء في تراقينا بنور لاح كالفرقان

إذا أفناك سقياها وزاد الشرب طغواها

فـإياكم وإيـاها وخلوا دهشـة الحيران

* * *

هيج نومي ونفى ريح على الغور هنا

أذكــرني وامضـه طيب زمــان سلفـا

يا رشا ألحاظه صيرن روحي هدفا

يـا قمراً ألفـاظـه أورثن قلبي شـرفـا

شــوقني ذوقني أدركـني أضحـكني

أفقـرني أشكرني صـاحب جود وعـلا

إذا حــدا طيبني وإن بــدا غيبني

وإن نـأى شيبني لا زال يـوم الملتقى

أكرم بحبي سامياً أضحى لعيد راميا

حتى رمى بأسهم فيهن سقمي وشفا

يا قمر الطوارق تاجا على المفارق

لاح من المشـارق بـدل ليلتي ضحــا

يا نظري صل لما غمضت عنه النظرا

أغضبته فاستـترا عاد إلى مـا لا يُرى

كن دنفـاً مقتربـاً ممتثلاً مضـطرباً

منتقـلاً مغتربـاً مثل شهـاب في السما

يا من يرى ولا يرى زال عن العين الكرى

قلبي عشيق للسرى فانتهضوا لما ورا

***

وهذه طائفة من الأشعار التي نظمها جلال الدين الرومي باللغة الفارسية اخترناها من ديوان شمس تبريز لما تتمتع به من مستوى رفيع:

تجلَّ بوجهك، فإن مناي الحديقة وبستان الورد! وافتح شفتيك، فإن مناي الشهد الكثير!

أيتها الشمس! أميطي عن وجهك نقاب السحاب. إن أملي تلك الطلعة المشرقة الوضاءة! لقد سمعت من هواك صوت الطبول، تقرع للصقور، فرجعت، لأن أملي ساعد السلطان.

لقد قلت لي، في دلال: اذهب، ولا تتعبني أكثر من ذلك، وقولك لي هذا هو غاية أملي!

ودفعك لي قائلاً: اخرج! إنه ليس في المنزل. وكذلك دل حارس الباب، وكبره وخدته، كل أولئك آمال أرتجيها.

أيتها النسائم العبقة التي تهب من بستان الحبيب! مري علي فإني مؤمل بشارة الريحان!

إن خبز هذا العالم وماءه كسيل لا وفاء عنده. وأنا حوت عظيم، وليس لي أمل سوى بحر عمان.

وإنني لأردد دوماً عبارات الأسى مثل يعقوب، ذلك لأن أملي وجه يوسف المليح. والله ما المدينة بدونك إلا

سجن لنفسي، فليس لي أمل سوى الحيرة في الجبال والصحارى!

بل إن أملي أن أمسك بيد كأس الشراب، وأمسك شعر الحبيب بالأخرى، وأن أرقص على هذا النحو، وسط الميدان.

ما أشد ضيقي بهؤلاء الرفاق ذوي العناصر الواهية، إني أريد أسد الله، أريد رستم بن دستان.

إن في يد كل موجود فتاتاً من الحسن، لكني أريد منجم الملاحة ومعدنها.

ومهما كنت مفلساً فلن أقبل نثار العقيق، فلا رجاء لي إلا منجم العقيق النادر المتلألىء وأني من هؤلاء الخلق لمليء بالشكوى باك ملول، ولهذا أريد صياح السكارى، وضجيجهم!

لقد أصبحت روحي ضائقة بفرعون وظلمه، ولهذا فإن أملي نور وجه موسى بن عمران. ولقد قيل لي: إن هذا لا يوجد، فقد طال بحثنا عنه! وذلك الذي لا يعثر عليه إنما هو أملي! إنني أفصح من البلبل، لكني، من الحسد العام، ختم على لساني، فما أملي إلا النواح.

وبالأمس كان الشيخ يحمل السراج، ويطوف بالمدينة قائلاً: لقد ضقت بالشياطين والوحوش، إني أنشد إنساناً.

بل إن أمري قد خرج عن كل حنين، وكل أمل! إن

رجائي أن أدع الكون والمكان، متجهاً نحو الحقائق.

فهو هناك محتجب عن العيون، وكل المرئيات من فعله، وهذا المحتجب الواضح الصنع هو غاية أملي!

لقد سمعت أذني قصة الإيمان فسكرت بها، فلتقل إن الإيمان بذاته وكنهه أملي ورجائي.

أنا قيثار العشق، والعشق قيثاري. ولي أمل في يد عثمان وصدره وأنغامه.

وهذا القيثار يحدثني قائلاً: إنني من شوقي الدائم أرجو ألطاف رحمة الرحمن.

أيها المطرب اللطيف! إن ما لم أفصح عنه يمضي على تلك الصورة لأن أملي على تلك الصورة.

ولتَجُل لنا يا شمس تبريز ومفخرها مشرق العشق، فإني أنا الهدهد،

وما رجائي إلاَّ حضور سليمان.

***

أيها الحبيب! إني لم أر طربا في الكونين بدونك! لقد رأيت كثيراً من العجائب، ولكني لم أر عجباً مثلك!

يقولون: إن الإحتراق بالنار نصيب الكافر. ولم أر محروماً من نارك سوى أبي لهب. ولكم وضعت أذن الروح على نافذة القلب، فسمعت كلاماً كثيراً، ولكني لم أر شفتين! إن كثيراً ما تنثر رحمتك على عبدك، بدون توقع

منه. ولم أر سبباً لذلك سوى لطفك الذي لا يحد.

أيها الساقي المختار! يا من أنت مني بمنزلة عيني. إن مثلك لم يجيء في العجم، ولا أنا رأيت نظيرك في العرب!

صب لي من الخمر ما أتخلص به من ذاتي، فإني لم أر في الذاتية والوجود سوى التعب. يا من أنت اللبن والسكر! يا من أنت الشمس والقمر! يا من أنت الأم والأب! إني لم أر نسباً سواك.

أيها العشق الذي لا يزول! أيها المطرب الإلهي! إنك أنت الملجأ والظهير، وما رأيت لقباً يفيك حقك!

نحن قطع من الفولاذ، وأما عشقك فمغناطيس. وأنت الأصل في كل طلب يجذبنا إليك، وليس ذلك في نفوسنا.

فلتسكت يا أخي! ولتدع حديث الفضل والأدب! فلست أرى أدباً عندك، ما دمت دائباً على حديث الأدب!

فيا شمس الحق التبريزي، يا أصل أصل الروح! إني لم أر تمرة واحدة إلا في بصرة وجودك!

***

كيف لا يحلق الروح حينما يأتيه من جناب الجلال خطاب اللطف حلواً كالسكر يناديه تعال!

وكيف لا يقفز السمك متعجلاً من اليابسة إلى اليم، حينما يطرق سمعه صوت الأمواج من البحر الزلال!

ولماذا لا يطير الباز عائداً من الصيد إلى سلطانه، عندما

يسمع نداء العودة تردده دقات الطبول!
ولماذا لا يرقص كل صوفي كالذرة في شمس البقاء، حتى تخلصه من الزوال!
أيكون بمثل هذا اللطف والحسن والإنعام بالحياة، ويصبر عنه إنسان؟
ألا ما أعجب هذا الشقاء والضلال!
لتطر ولتحلق أيها الطائر نحو معدنك، حتى تخلص من القفص، وتصبح كالبازي خوافي وقوادم!
ولترحل من الماء الملح نحو ماء الحياة. ولترجع إلى صدر عالم الروح، تاركاً موضع صف النعال!
لتذهبي لتذهبي أيتها النفس! وإننا أيضاً لقادمون من عالم الفراق هذا إلى عالم الوصال!
إلى متى نحن في عالم التراب، نملأ كالأطفال حجورنا بالتراب والحصى وحطام الخزف؟
فلنرفع أيدينا من التراب، ولنحلق نحو السماء! ولنهرب من الطفولة إلى مأدبة الرجال!
ألا فلتنظر كيف أن الهيكل الترابي مثل حقيبة أحاطت بك، فلتمزق هذه الحقيبة، ولترفع رأسك منها.
ولتقبض بيدك اليمنى على هذا الكتاب حتى لا يعصف به الهواء، إنك لست طفلاً لا يدري اليمين من الشمال!
إن الله قد أمر رسول العقل أن يمضي، كما أمر يد الموت

أن تعرك أذن الحرص.
وسمعت الروح النداء يهتف بها: اذهبي إلى الغيب، ولا تنوحي بعد اليوم!
خذي الكنز والنوال.
فاهتف منادياً، وارفع صوتك قائلاً: إنك أنت السلطان! وإن لك لطف الجواب، كما أن لديك علم السؤال.

* * *

إنني مصور نقاش، أصنع في كل لحظة تمثالاً. ولكني في حضرتك أصهر كل هذه التماثيل!
وإني لأخلق مائة نقش وأبث فيها الروح فإذا ما رأيت تصويرك ألقيت بها جميعاً في النار!
هل أنت ساقي الخمار، أم أنك عدو اليقظة؟ أم أنك الذي يخرب كل دار أقيمها؟
لقد صبت النفس فيك وأصبحت ممتزجة بك! وإني لمدلل هذه النفس ما دام شذاك قد علق بها.
وكل قطرة تنبثق من دمي تقول لترابك: إن لوني هو لون حبك، وأنا الشريكة في عشقك! وبدونك يكون هذا القلب خراباً في مثوى الماء والطين. فلتدخل المنزل أيها الحبيب، وإلا فإني تاركه!

* * *

ذهبت إلى مقام السيد، وسألت أين يكون؟ فقيل لي:
إن السيد عاشق ثمل، يمضي من مكان إلى آخر.
قلت: إن عليَّ واجباً إزاءه، فهبوني علامة أهتدي بها.
إنني صديق للسيد، ولست عدواً له.
فقالوا: إن السيد قد أصبح عاشقاً لذلك البستاني.
فابحث عنه في البساتين، أو عند شاطىء النهر!
إن السكارى والعشاق يقتفون أثر المحبوب. فكل من
أصبح عاشقاً فدعه، وانفض يديك منه!

فالسمكة التي عرفت الماء لا تجيء إلى اليابسة. فكيف
يبقى العاشق في عالم اللون والرائحة؟ والثلج المتجمد
الذي رأى وجه الشمس، تأكله الشمس الطاهرة، ولو كان
من طبقات متراكمة.
فكيف إذن يكون من أصبح عاشقاً لسلطاننا؟ ذلك
السلطان الفريد الوفي المتحلي بمليح الطباع!
إنه الكيمياء التي لا حد لها ولا عد ولا قياس! تلك التي ما مست
نحاساً إلا غدا ذهباً بأمرها. فنم عن هذا العالم، وتخلص
من الجهات الست! إلى متى تطوف ذاهلاً حيران من مكان
إلى مكان؟ وإنك لامحالة محمول باختيارك، ليكون لك أمام
الملك نضرة وجه وإعزاز!
ولو لم يكن هناك دخيل بين الصحاب، لكشف عيسى لك
الأسرار، بكل دقائقها.

لقـد أغلقت سبيـل الفم، وفتحت السبيـل الخفـي، وخلصت ـ في لحظة واحدة ـ من جنون القيل والقال!

***

إن كل صورة رأيتها فجنسها في اللامكان! فلو ذهبت الصورة فلا حزن، ما دام أصلها خالداً!
فكل صورة رأيتها، وكل نادرة سمعتها، لا تفد محزون القلب لأنها ذهبت، لأن الأمر ليس كذلك.
فما دام أصل العين باقياً، ففرعها يبقى على الدوام ساقياً!
وما دام كل منهما لا زوال له، فعلى أي شيء نواحك؟
فلتعلم أن الروح كالنبع، وكل هذه المصنوعات كالأنهار.
وما دام النبع باقياً، فالأنهار منطلقة منه!
فلتطرح الهم من رأسك، ولتشرب دائماً من ماء النهر! ولا تفكر في نضوب الماء، فهو ماء لا حدود له!

فمنذ اللحظة التي جئت فيها إلى عالم الوجود، وضع أمامك سلم حتى تستطيع النجاة. لقد كنت في أول الأمر جماداً، ثم غدوت نباتاً، ثم صرت حيواناً.
كيف خفي عليك هذا؟
وصرت من بعد ذلك إنساناً ذا عقل وعلم وإيمان. فانظر كيف أصبح كلاً متماسكاً هذا الجسم الذي هو جزء من الثرى!
وحينما تجاوزت الإنسانية، أصبحت بـدون شك ملكـاً!

وبعد أن انتهيت من هذه الأرض فمكانك على السماء.
فلتترك ـ بعد ذلك ـ طبيعة الملك، ولتدخل في ذلك اليم،
حتى تصبح قطرتك بحراً يفوق مائة من بحر عمان!
انطلق من هذا الولد، ولتهتف دائمًا بكل روحك قائلاً:
أحد! . وإذا كان جسمك قد شاخ، فعلى أي شيء
حزنك، ما دام روحك مفعمًا بالشباب؟

***

قال: من بالباب؟ قلت: عبدك الوضيع! قال: فأي شأن
لك؟ قلت: أقرئك السلام، أيها العظيم!
قال: فإلى متى تلاحقني؟ قلت: حتى تدعوني!
قال: فإلى متى تجيش؟ قلت: حتى القيامة!
لقد أقمت دعوى الحب، وأقسمت على ذلك، أني أضعت
في سبيله الملك والشهامة!
قال: إن القاضي يريد شاهداً على الدعوى. قلت: إن
شاهدي معي، ودليلي شحوب وجهي!
قال: إن الشاهد مجرح، فعيناك مذنبتان! قلت: بجلال
عدلك، إنهما من العدول، ولا غرامة عليهما.
قال: فعلى أي شيء عزمت؟ قلت: على الوفاء والمحبة!
قال: فماذا تريد مني؟
قلت: لطفك الشامل.
قال: فمن كان رفيقك؟ قلت: خيالك أيها الملك!

قال: فماذا دعاك إلى هنا؟ قلت: أريج كأسك!
قال: فأي مكان أفضل؟ قلت: قصر قيصر!
قال: فماذا رأيت هناك؟ قلت: مائة كرامة!
قال: فلماذا هو خال؟ قلت: خوف قاطع الطريق.
قال: فمن قاطع الطريق؟ قلت: إنه الملامة!
قال: فأين الأمان؟ قلت: في الزهد والتقوى.
قال: فما الزهد؟ قلت إنه طريق السلامة.
قال: فأين الآفة؟ قلت: في طريق عشقك.
قال: فكيف أنت هناك؟ قلت: في استقامة.

فكثيراً ما جربتك، فلم يجدني ذلك نفعاً. ومن جرب المجرب حلت به الندامة.

فصمتاً، فإني لو ذكرت لك غوامض أقواله، لانطلق بك الوجد فلم يوقفك باب ولا سقف.

***

أقبل! أقبل! فإنك لن تجد مثلي صديقاً! وأي حبيب لك مثلي في هذا العالم كله؟

أقبل! أقبل! ولا تضع وقتك في الطواف. فليس لنقدك سوق عند غيري!

إنك مثل واد ممحلٍ، وأنا مثل المطر! إنك مثل مدينة خراب، وأنا كالبناء!

فالخلق لم يروا أثراً للسرور، ولن يروا ذلك، ألا بخدمتنا

التي هي مشارق الأفراح!
وإنك لترى في منامك آلافاً من الصور المتحركة، فإذا ما ذهب الحلم، لا ترى من الخلق أحداً!
فأغلق تلك العين الحولاء، وافتح عين الفطنة، فإن النفس مثل حمار قيده رسن الحرص!
ولتبحث عن الشراب الحلو في بستان العشق. إن الطبيعة تبيع الخل، وتعصر العنب الفج!
اذهب إلى دار الشفاء التي أعدها خالقك، فإنه لا مفر للمريض من هذا الطبيب!
إن العالم ـ بدون هذا الملك ـ كجسم لا رأس له. فكن ملتفاً كالعمامة حول مثل هذا الرأس. وإن لم تكن أسود الوجه فلا تدع المرآة من يدك. إن الروح مرآتك، وأما الجسم فهو الصدأ.
فأين هذا التاجر الميمون، من طالعه المشتري؟ حتى أتعامل معه بحماس، وأشتري بضاعته. أقبل! ولتتفكر بي، فإني واهبك الفكر! أقبل! ما دمت مستطيعاً شراء أكوام العقيق، من منجمي!
أقبل! وتقدم نحو من أعطاك القدم! وانظر بكلتا عينيك إلى من وهبك الإبصار! ولتصفق بكلتا يديك لمن جاد بحره باليدين! فإن سروره لا يدع مجالاً للهم ولا للحزن!
استمع إليه بدون أذنين، وخاطبه بغير لسان، فليس

حديث اللسان بخال من الخلاف والأذى.

***

أيها الحبيب! إن جمال الروح رائع الحسن بديع، ولكن جمالك وحسنك شيء غير هذا! فيا من ظللت السنين تصف الروح، أظهر صفة واحدة تكون كفؤاً لذاته!

إن العين لتزداد من خياله نوراً، ولكنها - مع كل هذا - مظلمة أمام وصاله!

لقد ظللت فاغر الفم، من تعظيمي لهذا الجمال! وكان لسان القلب يهتف في كل لحظة: الله أكبر! وها هو ذا القلب قد وجد عينا مقيمة على هواك. أواه! لكم في هذا الهوى من غذاء للقلب والعين!

فالذي صنعه عشقك بقلوبنا إنما هو عطف السيد على الخادم، وإلا فأين القلب الذي هو جدير بهذا العشق!

وكل قلب أغفى ليلة على هواك، يغدو كالنهار المشرق، تقبس النور منه الجواء!

وكل من أصبح محروماً من مراده فهو - حين يغدو مريداً لك - يتيسر له مراده.

وكل مصطل بالجحيم احترق بهذا العشق، ووقع فيه، فقد وقع في الكوثر، لأن عشقك هو الكوثر. إن قدمي لا تكاد تمس الأرض وأنا على أمل وصالك. أما حين أكون مفترقاً عنك، فيدي فوق رأسي.

فلا تحزن أيها القلب من جراء ظلم الأعادي. وتفكر في هذا: إن الحبيب هو القاضي! وإذا كان العدو قد أصبح مبتهجاً لاصفرار وجهي، فإن اصفرار وجهي هذا إنما هو من فعل الورد الأحمر.

وما دام حسن حبيبي فوق أن يوصف بأي من الصفات، فما أعظم ألمي لفراقه، وما أوهى مديحي! نعم! إن القاعدة أن كل محزون تعس كلما ازداد شجاه قل نواحه.

ها هو ذا شمس الدين قد أشرق من تبريز مثل القمر، بل ماذا يكون القمر ذاته؟

إن هذا هو الوجه الأقمر!

***

أيها الروح! من هذا الذي استقر في منزل القلب؟ ومن ذا الذي يستقر في مكان الملك إلا ملك أو أمير؟

لقد أشار بيده إلَيَّ قائلاً: أفصح! ماذا تريد مني؟ وماذا يريد مخمور الشراب سوى النقل وكأس الشراب؟

نقل له بالقلب تعلق، وكأس من النور المطلق! ووليمة أبدية تقام في خلوة أنا الحق!.

وكم من مخادعين ينبثون في مأدبة الشاربين! فالصمت حتى لا تزال، أيها الرجل الرقيق الطيب!

وكن يقظاً في حلقة السكارى حتى لا تصبح مغلق العين كالبرعمة، مفتوح الفم كالوردة.

إن العالم كالمرآة، وعشقك هو الصورة الكاملة! أيها الناس! من ذا الذي رأى جزءاً أكمل من الكل! لتمش على قدميك كالعشب، لأنه في هذا البستان يكون الحبيب وحده راكباً كالوردة، وأما الباقون فمشاة.

إنه السيف والمقاتل، والمقتول والقاتل! وهو الذي غدا جملة العقل، كما أنه هو الذي جعل العقل هباء!

فليدم الله الملك صلاح الدين، وليجعل الله عطاؤه ـ على الدوام ـ قلادة في عنقي!

***

إنّ للعشق بساتين غلفتها حجب الدماء! وللعشاق مع جمال العشق شؤون لا شبيهة لها العقل يقول: هناك ست جهات لا يخرج عنها طريق. والعشق يقول: بل هناك مثل هذا الطريق، وقد سلكته مراراً!

العقل أبصر سوقاً فبدأ في المتاجرة.

وأما العشق فقد أبصر أسواقاً كثيرة، إزاء تلك السوق!

وكم من منصور مستتر ـ لركونه إلى روح العشق ـ قال بترك المنابر، وأصبح فوق المشانق! إن العشاق المتألمين ينعمون بمذاقات محتجبة في الباطن، أما العقلاء الذين أظلمت قلوبهم فباطنهم يضمر الإنكار.

العقل يقول: لا تخط فليس في الفناء سوى الأشواك،

والعشق يقول للعقل، إنك أنت مستقر هذه الأشواك.

فحذار! الزم الصمت، وانتزع من قدم القلب شوكة الوجود! وسترى حينذاك في باطنك حدائق الورد!

يا شمس تبريز! إنك أنت الشمس وراء سحاب الأحرف! فإذا ما طلعت شمسك أمحت كل الكلمات!

***

إن الروح التي ليست شعارها العشق الحقيقي من الخير ألا توجد، فليس وجودها سوى عار! كن ثملاً بالعشق، فإن الوجود كله عشق، وبدون العشق وشؤونه لا سبيل إلى الحبيب.

يقولون: ما العشق؟ قل هو ترك الإرادة! ومن لم يتخلص من إرادته، فلا إرادة له!

العاشق ملك، والعالمان نثار عند قدميه، والملك لا يلتفت قط إلى ما هو ملقى عند قدميه!

إن العشق والعاشق باقيان إلى الأبد، فلا تربط قلبك بسواهما، لأنه عرض زائل.

إلى متى تعانق هذا المعشوق الميت؟ عانق الروح التي برئت من الحدود!

فكل ما يولد في الربيع يموت إبان الخريف. لكن بستان العشق لا مدد له من الربيع.

وتلك الوردة التي يجيء بها الربيع قرينة للشوك! كما أن

خمر العصير لا تخلو من الُخمار.

فلا تقف في هذا الطريق ناظراً، منتظراً، فوالله ليس هناك موت أسوأ من الإنتظار.

واجعل قلبك متعلقاً بالنقد الصحيح إن لم تكن زائفاً. وأسلم أذنك إلى هذه النكتة، إن كانت أذنك بريئة من القرط!

فلا ترتعد فوق حصان الجسد، وسر مسرعاً على قدميك، فإن الله يهب جناحين لمن لم يمتط حصان الجسد.

وتخل عن الهموم واجعل قلبك كامل الصفاء. كصفحة المرآة التي لا نقش فيها ولا تصوير.

فهي حين صفت من الصور تجمعت فيها الصور، فليس يخجل وجه إنسان من تلك الصافية الوجه. فإن طلبت مرآة صافية فانظر نفسك فيها، فإنها لا يعتريها خجل ولا خشية من قول الحق!

وما دام وجه الحديد قد اكتسب بالصقل هذا الصفاء، فماذا يلزم القلب، وهو من الغبار؟

لكن بين القلب والحديد هذا التفاوت: ان هذا يحفظ الأسرار، وذاك لا سر عنده.

* * *

عجباً أين مضى ذلك الحبيب الجميل!

عجباً أين تولى ذلك السرو المليح الممشوق!
لقد كان بيننا كالشمع، يمنحنا النور،
فأين مضى بدوننا؟ وا عجباً أين مضى؟
إن قلبي ليرتعد كالورقة طول النهار،
يهتف: أين مضى ذلك الحبيب وحده، في منتصف الدُجى؟
ألا فلتمضوا على الطريق، ولتسألوا العابرين:
أين ذلك الرفيق الذي ينعش الروح، أين؟
بل اذهبوا إلى البستان، واسألوا كل بستاني:
أين مضى غصن الورد الرشيق، أين؟
أو اصعدوا إلى قمة الحصن وسلوا الحراس.
أين ذهب ذلك السلطان الذي لا ند له، أين؟
إنني أدور في الصحراء كالمجنون، متسائلاً:
أين ذلك الغزال، في هذه الصحراء؟
وعيناي قد أصبحتا من الدمع مثل جيحون،
تتساءلان: أين اختنى ذلك الجوهر في هذا البحر؟
إني أسائل القمر والزهرة طوال الليل:
قائلاً: أين احتجب ذلك القمري المحيا، في هذه الآفاق العالية؟
وما دام هو لنا، فكيف أصبح مع الآخرين؟
وما دام ليس هنا، فأين احتجب هناك؟

وإن كان قلبه وروحه قد ارتبطا بالله،
وخلصا من هذا الماء والطين، فأين احتجب؟
ألا فلتقل بوضوح: أين اختفى شمس تبريز،
وهو الذي قال: إن الشمس لا تخفى!

* * *

لا تحتجب عنا فوجهك علينا مبارك.
وإن شهودك لهو بركة على جميع الأرواح.
لا تبعد ظللك عن رؤوسنا لحظة واحدة،
فأنت قد علمت أن ظل العنقاء مبارك.
يا ربيع الحسن! أقبل، فإن ذلك الهواء الحلو،
مبارك على البستان والروضة والحديقة والمرج!
يا من تفديه آلاف الأرواح المقدسة،
التي تُقبل إلى جادة العشق، وهي ذلك المكان المبارك!
إننا موهون بك، شردنا من مكان إلى مكان،
ومثل هذه البطالة، وذلك الوله، بركة حلت بنا.
يا أسارى الجسد! ألا فلتمرحوا في مروج الروح.
فقد قال الرسول: إن الشهود مبارك!
فكل ورقة وكل شجرة رسول مقبل من العدم،
يقول: إن الغراس صافية مباركة.
وما دامت الأوراق والأشجار تتحدث بدون لسان،
فاستمعوا إليها بلا أذن، فهي مباركة.

يا روح عناصر العالم الأربعة، إن جمالك مبارك
على الماء والهواء والنار والغبراء.
يقول: إن كل ما زرعت لن يصيبه الضياع.
وما غرس أحد بذور الدين إلا كان مباركاً.
إنني أسجد لأن ترابك على الرأس مثل التاج.
وأنا أخطو بقدمي لأن طريقك مبارك علينا.
وإن صورتك لتخطر أمام عيني في هذه اللحظة.
والله لقد أقبلت باليُمن، وهي حقاً مباركة.
فجمال الربيع مبارك على أبناءالتراب،
كما أن الغوص في البحار مبارك على الأسماك.
أما تلك الشمس التي أشرقت من القلب في الصدور،
فهي مباركة على السماء والأرض، وعلى القبة الخضراء.
وليس أمام القلب مجال لينبس بكلمة عن الذوق،
لكن الروح يسجد قائلاً: مبارك أنت يا إلهي!
وكل قلب يغدو في هذه الليلة نديماً لهواك،
اعلم يقيناً أنه يكون في غده مباركاً.
فلتزدنا من شراب الصمت، ولتلزمنا الصمت،
فإخفاء الأسرار في الباطن عمل مبارك.

* * *

في كل ليلة أنا ضيف لمليكي، على مائدة الإحسان والوفاء.

إني ضيف صاحب الدولة، أدام الله دولته!
وذات ليلة جلس على مائدة الأسود قرد!
وأين هو من الأسد، لو لم يكن صفيق الوجه؟
فانظر كيف يتقاطر الدم من سيف المليك، قهراً لنا!
فما نهاية هذا التوقح؟ والله إن هذا خطأ، هذا خطأ!
فلو أن طفلاً صفع أمه، على غير توقع منها،
فأنت لا تغدو عدواً له، فلا ترد له الصفع.
أما من شرب لبن الأسود، فهو يكون أسداً لا رجلاً.
وكم من صورة آدمي رأيت، كانت في حقيقتها تنيناً!
ومع أن نوحاً كان في صورة الآدميين، فقد كان طوفانه مدمراً للبشرية!
فقد تكون النار ذرة، لكن هذه الذرة تنطوي على شعل.
إنني أنا السيف، وأنا مهرق الدماء، إنني رقيق لكنني قاطع!
أنا مثل الدنيا الفانية، ظاهري حلو، وباطني بلاء!

* *

* * * *

يا نسائمنا التي لا تهدأ! بلغي الورد رسالتنا. قولي له:
أيها الورد الهارب إلى السكر، متى غدوت مفترقاً عن البستان؟

أيها الورد المنتمي إلى أصل سكري! إنك أكثر لياقة بالسكر!

فالسكر حلو وأنت حلو! وأحلى من كليكما الوفاء!

فضع خدك على خد السكر، وتذوق حلاوته، وامنحه شذاك!

ولتهرب إلى دولة السكر من مرارة الجور والفناء!

فالآن وقد غدوت شراب ورد، فأنت قوت القلب، ونور النظر!

فارتفع عن الطين، واعبر إلى القلب. وأين هذا من ذاك؟

لقد كنت جليساً للشوك، كما كان الروح قريناً للعقل!

فلترتفع الآن من الأرض إلى السماء، منزلاً منزلاً حتى اللقاء!

إنك تخطو نحو سر الخلق، وأنت تسلك الطريق الخفي. إنك تمر من

بستان إلى بستان، إلى حيث هناك، حيث تشكل الصور.

أيها الورد! إنك طائر نادر، تطير عكس اتجاه الطير. فالرسالة

تأتيك من تلك الجهة، فخل جناحيك، وأقبل بلا جناح!

أيها الورد! لقد أبصرت هذه المشاهد، ولهذا فقد هزئت بالدنيا!

ولهذا أيضاً مزقت رداءك، أيها الماكر الياقوتي القباء!

إن غراس الورد في السماء تهتف قائلة في البستان : يا من تريدون

سُلماً إلى السماء، لتسلموا الروح إلى البلاء.

هيا تقاطروا من هذا الطبق، وانطلقوا بدون سبيل مثل العرق،

من زجاجة صانع شراب الورد، كما تتسرب الروح من كأس السماء.

أيها السعيد الميمون! يا صاحب الطلعة الوردية اللون! لقد كنا

مثلك، فغدونا روحاً كالصلاة.

فمقصودنا بشراب الورد لطف الحق ووجودنا. وإن وجودنا لشبيه

بالحديد، وأما لطف الحق فهو المغناطيس.

إن العقل هو الحديد، وقد أصلاه بالشرر صانع المرايا.

فهو لا يريدك لنا، أو لعله يريدك بدونك.

حذار أيها القلب المسكي الحديث. فليس لهذا الكلام نهاية. ولست

بقادر على أن أبوح لإنسانٍ بما حدثتني!

يا شمس تبريز. حدثنا بسر الملوك، ذوي الطبيعة الملكية. فبدون
حرف ولا صوت، ولا لون ولا رائحة، بل بدون الشمس، كيف تشرق الضياء؟

* * *

أين أنا من النصح! ألا فلتدر الكأس، أيها الساقي! صب في الروح
تلك الكأس التي تنعش الروح، أيها الساقي!
ضع في يدي كأس الروح، يا معين العشاق! قربها مني في الخفاء،
بعيداً عن شفاه الغرباء، أيها الساقي!
وأعط الخبز لآكل الخبز، ذلك الطامع المسكين.
ثم أرقد هذا العاشق المتيم بالخبز، في زاوية، أيها الساقي.
يا روحاً لروح روح الروح! إننا لم نأت إلى هنا من أجل الخبز.
فانهض، ولا تتطلع بوجه متسول، في مأدبة السلطان، أيها الساقي
أمسك ـ في أول الأمر ـ بتلك الكأس الكبيرة، وضعها في كف ذلك الشيخ.
فإذا ما ثمل الشيخ، فتوجه نحو السكارى، أيها

الساقي!

كن صلب الوجه أيها المرتجى، فأين النشوة من الحياء؟

وإن كنت تستشعر الحياء، فصب عليه قدحاً، أيها الساقي!

انهض وأقبل، أيها الساقي، يا عدو الخجل والحياء!

أقبل ضاحكاً حتى يضحك لنا الحظ!

* * *

هل رأيت عاشقاً قط شبع من هذا الهيام؟

أم هل رأيت سمكة قط شبعت من هذا البحر؟

هل رأيت نقشاً قط يهرب من النقاش.

أم هل رأيت وامقاً قط يلتمس العذر من العذراء؟

إن العاشق ساعة الفراق يكون كاسم خلا من المعنى!

أما المعنى فهو كالمعشوق، لا حاجة به إلى الأسماء.

إنك أنت البحر وأنا الحوت، مما أملكه هو ما أردته، فتكرم

بالرحمة واحكم، فإني لم أتعب إلا بسببك وحدك.

أيها المليك القاهر! ما نهاية قحط الرحمة هذا؟

إن لحظة واحدة لا تكون فيها، تلتهب فيها النيران العالية!

والنار لو شهدتك لقبعت في زاوية وسكنت! وكل من اجتنى الورد

من النار، ألقى بالورد الجميل في النار!
إن هذا العالم بدونك عذاب، فلا مضت لحظة واحدة بدونك!
فبروحك، إن الروح بدونك عذاب لنا وبلاء!
إن خيالك مثل سلطان يخطر في أبهة بالفؤاد،
وكأنما هو سليمان يدخل قلب المسجد الأقصى.
فكان الألوف من حملة المشاعل، وأضحى المسجد كله نوراً
لقد أضحى كالجنة وحوض الكوثر، وحفل برضوان وبالحور!
تعالى الله، تعالى الله، فكم من قمر في الفلك، وهذا المخيم مليء
بالحور اللائي احتجبت عن مقلة الأعمى!
فمرحى بذلك الطائر السعيد القلب الذي اتخذ في العشق مقاماً!
وهل اتخذ طائر سوى العنقاء منزلاً ومقاماً في جبل قاف!

ومرحى بالملك شمس تبريز، طائر السعد الإلهي!
إنه شمس، لا شرقية ولا غربية، ولا يحتويها مكان!

* * *

وهذه نماذج من الشعر الملمع الفارسي الذي تمتزج فيه أبيات عربية بأخرى فارسية وهي من نظم جلال الدين الرومي :

لي حبيب حبه يشوي الحشا
لو يشا يمشي على عيني مشى
إن يوماً هو فيه رزقنا
طاب يوماً طاب رزقاً وحلا
ما الذي من فعله لم يحل لي
قد رضينا بفعل الله ما يشا
شوكة الأصل الأزهار الربى
إنه المنان في كشف الغشا
لم تقل ليا ولم تسمع به
ليس لب العشق سراً قد فشا
ومتى يقنع بالقشر فتى
ذو لباب في التجلي قد نشا
قد صمتنا وأسانا ناطق
عافنا من شر واشي قد وشى

* * *

راحٌ بفيها والروح فيها

كي أشتهيها قم فاسقنيها

سر حبيبي دل حبيبي

صوت حبيبي قم فاسقنيها

أدركت ثاري قبلت جاري

فازداد ناري قم فاسقنيها

شفتي بلثم قرنت بسكر

زادت ظماء قم فاسقنيها

الله واق والسعد ساق

نعم التلاقي قم فاسقنيها

مهما يعانق صدري حبيبي

يذهب قراري قم فاسقنيها

ساق مؤاس يسخر بكأس

يحلف براسي قم فاسقنيها

أهدى لسمعي طيب النسائم

بشرى حبيبي قم فاسقنيها

كأساً أدارا، عقل السكارى

منهم توارى قم فاسقنيها

الخمر تـزهــو والخـل يسخــو
أنــا في صـــراع قم فــاسقنيـهــا

* * *

وقبل أن نختم بحثنا عن انتاج جلال الدين الرومي الأدبي وخاصة ما يتعلق بالقصص والحكايات التي صنفها باللغة الفارسية ورمـز فيها إلى بعض الأمـور الروحـانية العقلية لتأتي منسجمة مع أفكاره ومعارفه العقلانية، نقدم القصة التالية :

كيف أوصى الصوفي الخادم بأن يعنى بالبهيمة وكيف أجاب الخادم بقوله :

﴿ لا حول ولا قوة إلّا بالله ﴾

لقد دار صوفي حول الأفق. وذات ليلة نزل في إحدى الزوايا.

وكان معه حمار فربطه في الحظيرة، ثم جلس مع الرفقاء في صدر الصفة.

فاصبح مع رفقائه مراقباً. وإن حضور الرفيق لدفتر، بل أكثر من ذلك.

فليس دفتر الصوفي هو السواد والحرف. فما دفتره إلا قلب

أبيض مثل الثلج.

إن حلقة هؤلاء الصوفية المستفيدين، حينما بلغت مداها من الوجد والطرب،

أحضر الخوان من أجل الضيف، وحينذاك تذكر حماره.

فقال للخادم: اذهب إلى الحظيرة، وهيء التبن والشعير من أجل ذلك الحمار.

فحوقل الخادم ثم قال: ما هذا الكلام الزائد؟ إن هذه الأعمال مهنتي من قديم الزمن.

فقال الصوفي: ولتبلل الشعير في بادىء الأمر، فهذا الحمار مسن واهي الأسنان.

فحوقل الخادم ثم قال: ماذا تقول أيها العظيم؟ إن الغير يتعلمون مني مثل هذه الشؤون.

فقال الصوفي: وابدأ بانزال السرج من فوقه، ثم ضع دواء المنبل فوق ظهره الجريح.

فحوقل الخادم ثم قال: وما نهاية هذا، أيها الحكيم؟ لقد نزل عندي مثلك آلاف من الضيوف.

وقد فارقونا وهم راضون جميعاً، ذلك لأن الضيف عندنا بمثابة الروح والنفس.

فقال : واتعطه الماء، وليكن فاتراً. فحوقل الخادم، وقال : لقد أخجلتني!.

فقال : ولتضع مع الشعير قليلاً من التبن. فحوقل الخادم، وقال : أقصر هذا الكلام.

فقال : ولتنظف موضعه من الحصى والبعر. وإذا كان مبللاً فضع فوقه التراب الجاف.

فحوقل الخادم، ثم قال : أيها الوالد! قل لا حول ولا قوة إلَّا بالله، وأقلل من الكلام مع الرسول الحاذق!

فقال : ولتأخذ مشطاً، ولتحك به ظهر الحمار. فحوقل الخادم، ثم قال : لتستح، أيها الشيخ!

هكذا تكلم الخادم، ثم عقد زناره مسرعاً، وقال : الآن أذهب، وأبدأ بإحضار التبن والشعير.

ولكنه مضى، ولم تخطر له الحظيرة قط على بال. وهكذا خدع ذلك الصوفي.

لقد ذهب الخادم إلى جماعة من الأوباش، وسخر من وصية الصوفي.

ولقد كان هذا الصوفي مجهداً من الطريق، فاستلقى، وأخذ يشاهد أحلاماً بعين إلهامه : أن حماره قد وقع بين

براثن أحد الذئاب، وكان الذئب ينهش قطعاً من ظهره وبطنه.

فحوقل الشيخ ثم قال: ما هذا الحلم الشبيه بالخبل؟

واعجباه! أين ذلك الخادم المشفق؟

ثم عاد فرأى حماره يمضي على الطريق، وهو يسقط حيناً في بئر، وحيناً في حفرة.

وكان يرى في صور شتى ما ساءه من تلك الواقعة، فأخذ يقرأ الفاتحة والقارعة.

وقال: ما الحيلة؟ لقد انطلق الإخوان ومضوا، وأغلقوا جميع الأبواب.

ثم عاد يقول: واعجبا لهذا الخادم! ألم يأكل معنا الخبز والملح؟

إنني لم أصنع معه إلا اللطف واللين، فلماذا يسلك معي بالحقد عكس سلوكي معه؟

لا بد لكل عداوة من سند، وإلا فإن الاشتراك في الجنس موجب للوفاء.

ثم أخذ يناجي نفسه، قائلاً: ولكن آدم ذا اللطف والجود، متى كان قد أوقع الجور بإبليس؟

وماذا صنع الإنسان بالحية والعقرب، حتى أن كلا منهما تلتمس له الموت والألم؟

إن تمزيق الفريسة طبيعة للذئب، وهذا الحسد على كل حال ظاهر في الخلق.

ثم عاد يقول: إن هذا الظن السيء خطأ! فلماذا يكون لدي مثل هذا الظن بأخي؟

لكنه ما لبث أن قال: إن الحزم في إساءتك الظن! وإلا فمتى كان حسن الظن يبقى سالماً؟ لقد كان الصوفي في هذه الوسوسة، وأما الحمار فكان في حال، جعلها الله جزاء للأعادي!

فهذا الحمار المسكين كان بين التراب والحصى، وقد مال سرجه، وتقطع لجامه.

لقد أنهكه الطريق، وقضى الليل بدون علف، فكان حيناً يحتضر، وحيناً يوفي على التلف.

لقد كان هذا الحمار - طول الليل - يردد: يا إلهي! لقد تنازلت عن الشعير، فهل أقل من حفنة من التبن؟.

وكان لسان حاله يقول: أيها الشيوخ! رحمة بي، فقد احترقت من جراء هذا الغر الجسور.

فذلك الذي رآه هذا الحمار من الألم والعذاب، يراه طائر بري وقع في سيل ماء!

وأخذ الحمار المسكين يتقلب على جنبيه حتى السحر، لما اعتراه من جوع البقر.

وحين أقبل النهار، جاء الخادم في الفجر، وسرعان ما التمس السرج، ووضعه فوق ظهر الحمار.

ووخذه وخزتين أو ثلاثاً كما يفعل باعة الحمير. وهكذا صنع بهذا الحمار ما يليق بذلك الكلب.

فأخذ الحمار يتوثب من وخز الإبرة. ومن أين له اللسان ليفصح عن حاله؟

وحين امتطاه الصوفي، ومضى على الطريق، أخذ الحمار يسقط على وجهه في كل لحظة.

فكان الخلق ينهضونه في كل مرة، وقد ظنوا جميعاً أنه مريض.

فهذا يمعن في تقليب أذنيه، وذاك يفتش عن أذى في فمه.

ومنهم من يبحث عن حصاة في نعله، ومنهم من ينظر ما قد يكون من قذى في عينيه.

وأخذوا يقولون : أيها الشيخ! ما سبب هذا؟ ألم تقل بالأمس : شكراً لله. إن هذا الحمار قوي؟.

فقال الشيخ : إن هذا الحمار الذي تعش بالأمس «حوقلات» لا يستطيع أن يسير في الطريق إلا على هذا النحو.

فما دامت الحوقلات هي كل غذائه بالأمس، فقد قضى الليل في التسبيح،

وها هو ذا يقضي النهار في السجود!

إن أكثر الناس أكلة للبشر! فلا تلتمس في تسليمهم عليك كثيراً من الأمان!

وتأمل آلاف الأبالسة المتظاهرين بالتقوى. يا آدم أنظر إبليس في الحية!

إنه يحدثك قائلاً : يا روحي! يا حبيبي! حتى يسلخ عن حبيبه جلده، كما يفعل القصاب!

فكن كالأسد، واعمل صيدك بنفسك، ودعك من خداع الغرباء والأقرباء.

واعلم أن مراعاة الأخساء لك شبيهة برعاية ذلك

الخادم، فانقطاعك عن النـاس خير لـك من أن تتلقى خداع اللئام.

ولا تقم دارك على أرض غيرك، واعمل عملك ولا تعمل عمل الغرباء.

* * *

كيف باع الصوفية بهيمة المسافر، ليقيموا بثمنها مجلساً للسماع

وصل صوفي مسافر إلى إحدى الزوايا، وهناك جـاء بحماره، وقاده إلى الحظيرة.

وقدم إليه بيده قليلاً من المـاء، وبعض العلف، ولم يفعل كما فعل الصوفي الذي سبق لنا ذكره.

لقد احتاط للأمر من السهو ومن التخبط، ولكن اذاهم القضاء - فأي جدوى للاحتياط؟ وكان هؤلاء الصـوفية معوزين فقراء، والفقر كان أن ينطوي على كفر يورث البوار.

أيها الغني البشم! حذار ولا تهزأ من انحراف ذلـك الفقير المتألم.

فهذا الجمع من الصوفية - لفـرط فاقتهم - قـد اتفقت كلمتهم على بيع الحمار.

قائلين : إن الضرورة تبيح أكل الميتة، وكم من فساد جعلته الضرورة صلاحاً!

وسرعان ما باعوا ذلك الحمار الصغير، واشتروا بثمنه طعاماً شهياً، وأضاؤوا الشموع!

وتعالت الصيحات في جوانب الخانقاه : إن الليلة للطعام الشهي والشره ومجلس السماع!

وكفانا حملاً لهذا الزنبيل، وكفانا سؤالاً، وكفانا صبراً، وكفانا صوماً يطول مداه!

إننا أيضاً من خلق الله، من ذوي الروح. وها هي ذي السعادة قد حلت اليوم في ضيافتنا!

وهم بذلك قد غرسوا بذور الباطل، إذ قد ظنوا من الروح ما لا شأن له بالروح.

وذلك المسافر أيضاً كان متعباً من الطريق الطويل، فرأى هذا الإقبال والتكريم.

فكل من هؤلاء الصوفية دلله ورعاه، ولعبوا جميعاً نرد الرعاية، على أحسن الوجوه!

فلما رأى الصوفي ميلهم إليه، قال : لو أنني لم أطرب الليلة فمتى يكون ذلك؟.

فأكلوا لذيذ الطعام، ثم بدأ السماع، فامتلأ جو الزاوية بالدخان والغبار، دخان من المطبخ، وغبار يتصاعد من الأرض، تدقها أقدام الراقصين!

وأرواح ثائرة غلب عليها الإشتياق والوجد!

فتارة كانوا يصفقون بالأيدي، وتارة يدقون بالأقدام، وحيناً كانوا يكنسون أرض الصُفَّة بجباههم.

إن الصوفي يطول انتظاره لينال مبتغاه من الدنيا، ولهذا فإن الصوفي يكون كثير الأكل!

وما كذلك يكون الصوفي الذي اغتذى حتى شبع من نور الحق، فإن هذا يكون بريئاً من عار التسول!

وليس من أمثال هذا الصوفي سوى قلة بين الآلاف، وفي ظلال دولة هؤلاء تعيش الكثرة الباقية.

وحينما اكتمل السماع من أوله إلى آخره، بدأ المطرب من جديد يعزف نغمة قوية!

وبدأ يترنم قائلاً: ذهب الحمار! ذهب الحمار! فدفعت حرارة النغمة جملة الحاضرين لمشاركته الغناء.

وبتلك الحرارة ظلوا يرقصون حتى السحر، ويصفقون بالأيدي مرددين: إن الحمار مضى وولى يا فتى.

وعلى سبيل التقليد، بدأ هذا الصوفي أيضاً يترنم مردداً : ذهب الحمار!.

وحينما انقضت هذه النشوة والإنفعال، وذاك السماع، بزغ الصبح، فقالوا جميعاً : الوداع.

وخلت الزاوية إلا من هذا الصوفي. وكان هذا المسافر يمسح الغبار عن متاعه.

وأخرج الصوفي متاعه من الحجرة ليربطه فوق الحمار. وكان ينشد رفيقاً للسفر.

ولقد سارع لعله يلحق برفقاء الطريق. ودخل الحظيرة فلم يجد حماره فيها!

فقال : لعل ذلك الخادم قد أخذه إلى الماء، فإنه لم يشرب بالأمس إلا قدراً ضئيلاً.

وأقبل الخادم فسأله الصوفي : أين الحمار؟ فقال له الخادم : انظر إلى لحيتك! فقام بينهما العراك.

فقال الصوفي : إنني قد أسلمت إليك هذا الحمار. وجعلتك موكلاً به.

فالزم حدود هذا البحث، ولا تجادلني رد إلـي ما أودعته عندك!

إنني أطلب منك ما كنت أسلمتك إياه. فلتعد إلي ما كنت قد أرسلته إليك.

ولقد قال الرسول: إن كل ما أخذته يدك، لا بد لها أن تعيده في عاقبة الأمر.

فإن كنت ـ لعنادك ـ لا ترض بهذا، فهلم أنا وأنت إلى منزل قاضي الشريعة.

فقال الخادم: لقد كنت مغلوباً على أمري، فإن الصوفية تهجموا علي، فغدوت خائفاً على روحي!

فهل تلقي بين القطط كبدا وأحشاء، ثم تبحث بعد ذلك عن أثر لها؟

إن رغيفاً من الخبز بين مائة من الجياع شبيه بقطة هزيلة أمام مائة كلب.

فقال الصوفي: فلنسلم أنهم قد أخذوه منك ظلمًا، وأنهم قد أصبحوا قاصدين دمي، أنا المسكين،

فإنك لم تجيء، ولم تقل لي: ما هم أولاء يأخذون حمارك، أيها المسكين!

حتى أبتاع حماري ممن عساه يكون قد اشتراه، وإلا اقتسم الصوفية بينهم ما لي.

لقد كانت هناك مائة وسيلة لتدارك الأمر، حينما كان الصوفية حاضرين،

أما الآن فقد تفرقوا في الأقاليم.

فبمن أمسك الآن؟ ومن ذا الذي آخذه إلى القاضي؟ إن هذا القضاء قد هبط فوق

رأسي من جرائك!

كيف لا تجيء، ولا تقول لي: أيها الغريب! لقد وقع بك مثل هذا الظلم الرهيب!

فقال الخادم: والله، إني قد جئت إليك مراراً، حتى أنبئك بهذه الأعمال،

فكنت تقول لي: إن الحمار مضى وولى يا فتى! وكنت أكثر انفعالاً من جميع الناطقين بهذا القول.

فكنت دائماً أرجع قائلاً: إنه واقف على هذا الأمر، وهو راض بهذا القضاء، فهو رجل عارف!

فقال الصوفي: إنهم جميعاً كانوا يحسنون ترديد هذا القول. ولقد راق لي أنا ايضاً أن أردده!

وإن تقليد هؤلاء هو الذي أسلمني للريح. فعلى هذا التقليد مئتان من اللعنات!

وبخاصة تقليد مثل هؤلاء الذين لا طائل وراءهم. فليكن سخط إبراهيم على الآفلين!

إن ذوق هذه الجماعة كان يلقي بأصدائه في قلبي، فتحقق للقلب من تلك الأصداء ذوق مماثل!

فإن كنت تريد أن يتحقق الصفاء لعينك وسمعك وعقلك، فلتمزق ما يغشيها من أستار الطمع!

ذلك لأن تقليد هذا الصوفي كان مبعثه الطمع، فحجب عقله عن النور واللمع.

فالحرص على الطعام الشهي، والحرص على الذوق والسماع، وقفا حائلاً بين عقله وبين الاطلاع.

فلو أن الطمع استقر في المرآة، لصارت تلك المرآة مثيلة لنا في النفاق!

ولو أن الميزان أصيب بالطمع في المال، متى كان الميزان يقول الصدق، حين وصف الحال؟

فكل من كان طامعاً غدا متعثر اللسان. ومع الطمع كيف يحل النور بالعين والقلب؟

إن خيال الجاه والمال يكون أمام البصر كالشعرة حين تصيب العين.

وما كذلك من كان منتشياً، وقد امتلأت روحه بالحق، فإنه يظل حراً، حتى ولو أعطيته الكنوز!

فكل من سعدت روحه بمشاهدة الحق، يبدو هذا العالم ميتاً أمام عينيه.

لكن هذا الصوفي كان بعيداً عن تلك النشوة، فلا جرم أنه كان من حرصه في ظلمة كالأعمى!

* * *

هذا هو الحكيم الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي الذي احتل في تاريخ الفكر الحقاني مكاناً سامياً سيظل متلألأ بشعاعه العرفاني، وضوئه الحقاني إلى الأبد.

وبهذا نختم كتابنا والله الموفق،

لما فيه الخير والفلاح، والمجد والسؤدد.

فهرس

هذا الكتاب

يؤكد تاريخ الفكر الاسلامي ان الشيخ الحكيم جلال الدين الرومي قد فاق علماء عصره وحلق في متاهات الحقيقة حتى بلغ الجوزاء، وبذ كل من خاض غمار الفلسفة، والتوحيد، وصل في تأملاته وبحوثه العميقة المستفيضة واشراقاته ومكاشفاته إلى الذروة الابداعية، فعرف ذاته وعرف موجده ومبدعه.

في هذا الكتاب ترجمة وافية كافية لحياة هذا الحكيم الاشراقي نأمل أن تحتل مكانها في تاريخ التصوف الاسلامي.

